الحبيبة .. الزوجة .. الصديقة

اختفيت عن الدنيا لأربعة أعوام متتالية فى شرنقة حب هو الطاغوت بعينه، لم يخطر ببالى من قبل أن أحب من جديد، ولم أسع إلى ذلك على الإطلاق، وإنما هى ألاعيب الزمن التى يعبث من خلالها بالمخلوقات ويتسلى بمراقبته لردود فعلهم.

على الرغم من أننى كنت على وعى بتلك الملاعبة فإننى استسلمت لها تمامًا بإرادتى، إذ بهرنى ذلك الحب الجميل ودفع بدماء الحياة فى قلبى وعقلى وأطرافى وأصبحت عيناى أكثر لمعانًا عن ذى قبل، وتضاعفت قدراتى على العمل والإنجاز، بعبارة أخرى لقد تحولت إلى إنسان فرح يمارس وجوده فى سعادة يأتى مددها المتدفق من وجود الحبيبة على قيد الحياة.

كنت على يقين من أن ارتعاشة الحب الأول وبكارة الأحاسيس المتدفقة من نبعه يستحيل أن تتكرر. ضربات القلب المتدافعة، ونظرات العيون الولهى، وكلمات الود التى تقطر عسلاً مصفى .. أشياء يندر أن تحدث فى حياة إنسان أكثر من مرة واحدة.. ها هى ذى تتكرر أمامى الآن وربما فى صورة أجمل وطعم ألذ وأشهى وبهجة واثقة كفلتها سنوات التجربة.

عندما انفتحت الشرنقة وطارت الفراشة فوجئت بموجودات لم أعرها أدنى اهتمام خلال سنوات التشرنق، فها هى مدينتى الجميلة وقد امتلأت بالتماثيل والجداريات، كانت قد وُجدت بالفعل ولكنى لم أجدها إلا بعد أن حلقت فى الفضاء. وها هم الأصدقاء.. كنت قد نسيتهم تمامًا فلم أعبأ بالتواصل القديم الحميم معهم من داخل الشرنقة؛ وإذ بى أجدهم أحياء مثلى يعتبون علىّ الانقطاع الطويل عنهم، وكأنما وجودهم لم يكن يعنى لدى شيئًا وأنا متشرنق!.. وهذه مبانٍ جديدة تصعد إلى السماء وقد قامت فى الشارع نفسه الذى أسكن فيه دون أن أراها.. كل شىء أعيد اكتشافه من جديد كأننى كنت أعمى.

ياإلهى!.. كيف استطاعت تلك السيدة أن تعمينى بحبها العاتى عن كل شىء عداها وتغنينى عن أى شىء سواها؟! وتساءلت هل للحب هذه القدرة الطاغية على الاستغناء أم أنه كان من الأجدر بى أن أعيد اكتشاف نفسى بعد هذا التحول الخطير؟

ولقد شاءت الظروف وحدها- دون تدخل من جانبى- أن يكون حبى طاهرًا عفيفًا لم يختلط بأدران الجسد وأشواقه وحنينه إلى الامتزاج بالمحبوب، فمن الخيبة أن أدعى الرغبة فى ذلك، وإنما الحقيقة أننى كنت أتوق إلى وصل ما بعده فصل يوحد بين روحينا باتصال جسدينا، فهذا هو الحب ولا بديل غيره عن جنة الخلد على الأرض.

فى تلك الآونة عرفت «هناء» وحكيت لها عن حبى الجديد؛ قالت لى: إننى إنسان عذب فسحرنى الوصف وتماديت فى تقوية أواصر صداقتى بها، وكان قلبى مع الحبيبة كله!

قالت لى هناء: إنها مشتاقة إلى السباحة فى بحرى والغوص فى أعماقه، وأبدت تجاهى اهتمامًا فاق الحد حتى وصل بها الأمر يومًا إلى أن قالت لى بكل وضوح:

- إننى أريدك.

شىء خبيث فى داخلى منعنى من صدها رغم أن قلبى لم يكن ملك يمينى، فضلت أن أخوض معها التجربة على أن أوقفها عند هذا الحد؛ حيث تقتضى الحكمة، سألتها فى حيادية المحبوب الذى لا يحب:

- كيف يكون ذلك؟

- كيفما تشاء وأينما تشاء ووقتما تشاء.

إذن فأنا رجل عذب ومحبوب ومرغوب من امرأة أخرى غير حبيبتى، يا لك من كهل محظوظ، وأين كنتن أيتها الأفاعى الجميلة الناعمة أيام الشباب؟!..

قلت لها بالحيادية نفسها.. حيادية المحبوب لا المحب:

– أخشى إن حدث هذا مرة أن يتكرر مرات أخرى.

– دعنا لا نسبق الأحداث.

– أنت تعلمين كم أحب محبوبتى.

– هذا حب بلا جذور لا يلبث أن تذروه عاصفة واحدة.

– فلنجرب.

– وأنا موافقة.

وصفت لها مسكنى الصيفى، وحددت لها اليوم والساعة وبقيت فى انتظارها.

تناولت من المشروبات والأدخنة ما يكفى لجعلى فى حالة مزاجية طائرة يتسيد فيها اللاوعى على الوعى بقدر محسوب كفلته الخبرة والممارسة.

فى المنطقة البرزخية التى تفصل بين الحلم والواقع وتصل بينهما، رأيت نفسى أرقب حوارًا مثيرا بين الزوجة والحبيبة والصديقة التى تريدنى.. حوار لم يكن من الممكن حدوثه لو لم أستطع– وأنا فى تلك الحالة المزاجية الطائرة– أن أجمع بين الثلاثة فى شقة واحدة تفضى إلى بلكونة تطل على البحر الذى تتصاعد

قهقهات أمواجه فى أذنى.. وطال الوقت ولم تحضر فاتصلت بها على الهاتف:

– لماذا؟

– إننى خائفة.

ترى أتخاف منى أم من نفسها أم من الله؟!..

– ولم الخوف وأنت صاحبة الفكرة؟

– لست أدرى.. أرجو ألا تغضب منى

إنى على ثقة أننى لو احتلت عليها ببعض الكلمات الناعمة فسوف تتخلى على الفور عن خوفها.. لكنى لم أفعل.

– على العكس، أنا أشعر بأن ضميرى قد ارتاح لخوفك.

والحق أننى لم أكذب عليها فقد شعرت بأن كابوسًا قد انزاح عن صدرى، وعلى الرغم من ذلك فقد ضغطت عليها بقوة دون أن أعرف السبب فى ذلك فعدت لسؤالها:

– ولكن لماذا؟

– أعتقد أننى سأتحول من بعد هذا اللقاء إلى فرسة جامحة لن يمكن لأحدنا السيطرة عليها.

تصورت فى هذه اللحظة أن محبوبتى تنظر إلينا خلسة من ثقب الباب ونحن معا على الفراش، ثم لم ألبث أن رأيت زوجتى تنظر خلسة من ثقب الباب الآخر إلى محبوبتى وهى تنظر إلينا، وكانت المحبوبة قد قالت لى من قبل:

- أتمنى ألا تشتهينى.

- كيف وأنا أحبك؟

- إنى على يقين من ضياع حبنا لو حدث بيننا شىء.

أما زوجتى فكانت تسألنى كثيرًا عن أمور تتعلق بخطيبة الابن وخطيب الابنة ونفقات المنزل، وتنصحنى دومًا بالكف عن التدخين؛ لأنه يسبب الموت.

وبينما أستمع إلى ضحكات الموج الساخرة رن جرس التليفون، فإذا بها تسأل عن وجود ما يكفينى من الطعام والشراب وتنصحنى بعدم السهر، وتذكرنى بغطيطى وشخيرى أثناء النوم مؤكدة أنهما لا يتزايدان إلا بطول السهر وكثرة التدخين.. أمور لم تشغل بال الحبيبة أوالصديقة، فإحداهما لم تعاشرنى ولم تعرف طبيعتى على حقيقتها.

تذكرت تساؤلها حين كنت أعد حقيبتى للذهاب إلى المصيف:

- ألا تأخذنى معك؟

– سآخذك فيما بعد، أما اليوم فإنى بحاجة إلى الخلوة.

قالت بعينين موحيتين:

– خل بالك على نفسك.

لم أستطع أن أتفهم لغة الحوار الساخن بين الثلاثة، فربما كان يدور بلغة أخرى غير العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية وإلا تمكنت من الفهم والمتابعة.. ووجدت نفسى أسحب عدة الصيد وترانزستور صغير وبعض الساندوتشات وعلبة السجائر والولاعة وأترك الغرفة بمن فيها.

* * * *

كتبت فى ٢٠٠٣/١/١٨ ونشرت فى جريدة الأهرام فى ٢٠٠٣/٩/١٢.

الظاهر والباطن

• المسكين:

كان يسكن فى الشقة الملاصقة لشقتى ويعمل موظفًا ببنك شهير، لا يتورع من أن يطرق بابى فى ساعة متأخرة من الليل متعللاً بنفاد سجائره. أعطيه سيجارة؛ يعاود الكرة فى يوم آخر ليقترض عشرة جنيهات ثم لا يردها أبدًا. كثير الثرثرة فيما لا يفيد، بمقدوره أن يتحاور مع البواب لنصف ساعة حول أمر يتعلق بمساهمة رمزية فى نفقات صيانة المنزل، أتحاشى ملالته القاتلة قدر إمكانى مراعيا حق الجيرة.

وأسمع صوت زوجته فى المساء وهى تصيح معترضة على محاسبته إياها فيم أنفقت من مصروف البيت بالتفصيل الدقيق، بعد وفاته بأشهر قليلة فوجئت بعربتين من أحدث الطرز تنضمان إلى جراج المنزل؛ الأولى يقودها ابنه والثانية تقودها ابنته. أما الزوجة ففضلت إيداع ميراثها فى البنك وتزوجت من رجل اتصف بالسخاء.

* * *

• **الوزير:**

كان يعمل سائقًا لعربة موظفى الشركة، شهد له الجميع بحسن الخلق والطبع الهادئ وحلاوة المعشر، حتى اختاره رئيس الشركة ليقود له عربته، ويذاع خبر بقرب زيارة الوزير، حين ينصب اهتمام رئيس الشركة على نظافتها وتجميل مدخلها بعمل حديقة فى الواجهة. تفرغ السائق خلال النهار للإشراف على إنشاء الحديقة، لم يعرف أحد هل كان ذلك بتكليف من رئيس الشركة أم انطلاقًا من تلقاء نفسه.

انقلب إلى كائن آخر يشخط فى العمال ويهددهم بتوقيع الجزاءات عليهم، سخروا منه وأطلقوا عليه لقب وزير الزراعة، تصاعد تعطشه للسلطة دون امتلاك مقوماتها فازداد استبداده وتسلطه وكرهه الجميع من بعد حب، وذات صباح أصابه مغص مفاجئ فمات ودفن.

***

• **الساقية:**

من الممكن دون تجاوز للحقيقة أن ألخص حركة حياة صديقى الراحل عاشور محرز فى أنها كانت تنبع من رغبات زوجته، وتصب

فيها؛ ولأنه كان طيب القلب لدرجة مذهلة فإنه كان يلبى جميع رغباتها دون استثناء، وكان هذا الأمر محور تندّر عائلته الكبيرة ذات الشهرة والثراء، التى تحفظت منذ البداية على زواجه من فتاة عديمة الحسب والنسب.

أيام عطلاتها لا تقضيها إلا خارج مصر، وعليه إحضار تذكرة السفر وتأكيد الحجز فى الفنادق التى ستقيم بها، وأثناء غيابها يقتل نفسه فى العمل ليلاً ونهارًا دون أن يدرى بنفسه، وتطلب تغيير عربتها مرة كل عامين على الأكثر فيمتثل لرغبتها بصدر رحب.

كان حبها للمظاهر طاغيًا لدرجة السفه، لكنه كان يشبعه لها عن طيب خاطر؛ ذات مساء جاءنى مكدرًا بعد سفر زوجته للفسحة فى اليونان تاركة له رعاية الولدين، سألته عن سبب غمته فأجابنى بطفولة طازجة:

– تصور أنها بعد هذا كله تتمنَّع على.

– كيف؟

– بالأمس تعللت بأن تلبية رغبتى سوف تكلفها عناء معاودة الذهاب إلى الكوافير.

– وماذا فعلت؟ هل مزقت تذكرة السفر؟!

لم أنتظر إجابته فقد كنت أعرفها، ثم يسألنى عن أخبار صديقنا الفقير الذى يتولى فى السر نفقات علاجه من مرض خبيث، ويسلمنى مبلغًا من المال كى أسلمه بدورى إلى زوجة الصديق.. من الغريب أنه مات بالمرض نفسه.

❊ ❊ ❊

• الشفاء:

ارتكب ما استطاع من الفواحش فى حياته، لكنه لم ينس فى كل مرة أن هناك يومًا للحساب، ولقد صدق توقعه حين صدر قرار بإعفائه من منصبه الكبير وتعيين مساعده بدلاً منه.

أيقن أن الله سريع الحساب، لكنه لم ينج من أزمة قلبية عنيفة شلت سرعته المجنونة فى الحياة؛ ها هو الحساب الدنيوى قد جاء مبكرًا ربما ليكفر عن ذنوبه فى الآخرة، وربما لأن الله يحبه حتى إنه عجل بعقوبته بهذه الكيفية المهينة.

استعان بالصبر والصلاة لكن هزيمته فى الدنيا أرهقته فلم يستطع تحملها.. وعندما استرد قسطًا لا بأس به من صحته استبدل بالجرى الهرولة إلى الدنيا قدر استطاعته، ولكن بغير أن يزهدها.

بذل الغالى والرخيص حتى تحققت أمنيته وعاد إلى منصبه وسط أشلاء الضحايا والمقهورين، شعر أنه ملكها من جديد، وأنها عادت تدين له بالطاعة والولاء. صلى لله شكرًا ومات على سجادة الصلاة.

***

• **المخلص:**

زارنى الدكتور ناظم قادمًا من سورية، احتفيت به بشدة تعبيرًا عن امتنانى لكرمه الزائد حين استضافنى فى بيته بدمشق منذ عدة سنوات، أستاذ فى الآداب، لكنه يحمل روح طفل خفيف الظل متجدد النكتة، يضحكنى من القلب بتعليقاته الساخرة من أى شىء حتى نفسه، كان على غير عادته حزينًا مكتئبًا لدرجة مخيفة، انعكست على صحته وهيئته وبراءة وجهه.

عرفت أنه يعانى من عذاب جهنمى لأنه أحب امرأة- غير زوجته التى يحبها- لدرجة سلبته عقله وحكمته ومرحه الدائم؛ تعاطفت معه من قلبى وجلسنا أمام شاطئ البحر نتحدث حتى الصباح؛ لقد عاشرها ووعدها بالزواج لكنه يقف عاجزًا عن تحقيق وعده، يهرسه الشعور بالذنب تجاه زوجته المحبة وأولاده الأوفياء. إخلاصه لحبيبته ينازع إخلاصه لزوجته، والاثنان ينازعان إخلاصه لنفسه.

لجأ إلى الصلاة لأول مرة فى عمره؛ كلما صلى بكى واستصرخ ربه أن ينقذه من هذه الكارثة التى انقضت على حياته كسهم الموت. كلما حاول الهرب من نفسه ومن حبيبته وجد أن مهربه ينتهى دومًا إليها، إذ توحد معها روحًا وجسدًا فاستحال المفر.

شكى لى من عزوفه المتزايد عن تناول الطعام ومن كثرة التدخين؛ حذرته من شدة القسوة على نفسه لدرجة الانتحار البطىء ولكنى لم أعثر على حل لمأساته.

قبل أن يحدثنى فى هذا الأمر، كنت قد طلبت منه إرسال بعض المؤلفات الأدبية السورية إلىَّ بعد أن يعود.

مضى شهر على سفره دون أن يرسل إلى شيئًا، بعثت إليه بخطاب أستفسر عن صحته وأحواله؛ خجلت أن أسأله عن الكتب، وجاءنى الرد.

فوجئت بأن اسم المرسل المدون على ظهر المظروف هو اسم ابنه؛ ولما فتحت المظروف عرفت أنه مات بالقلب.

***

• **رحيق النشوة:**

قامت حياته وتأسست على مذهب المتعة، لم يفعل شيئًا لا يحبه ويرغبه، تفوق علينا فى الجامعة وشغل وظيفة مهمة، سرعان ما ارتقى فيها إلى أعلى المستويات مقارنة بجيله؛ تتحرك أقواله وأفعاله فى خط مستقيم لا يعرف الالتواء أو الالتفاف؛ يسعى جاهدًا لتحقيق هدفه؛ فإن تحقق سعد بذلك واحتفل وشرب ورقص وغنّى وأفاض من حلاوة روحه على الجميع، وإن لم يوفق ضحك ساخرًا من عناد القدر مسلمًا له تسليمًا كاملاً.

يتناول الطعام ببطء شديد فيتلذذ على مهل بكل لقمة يضعها فى فمه، وهكذا كان أمره فى كل شىء، التأنى لاستحلاب خلاصة المتعة، حين يضحك تنساب الدموع من عينيه اللامعتين ببريق الذكاء الأخاذ، كما تنساب الدموع نفسها حين تأثره بموقف بسيط.

لم يتزوج إلا الفتاة التى أحبها وأحبته، وتمناها وتمنته فأنجب منها البنين والبنات، ومن أقواله الشهيرة: إن الجنس بلا حب لا يعنى سوى الانحطاط..

سافر كثيرًا إلى الخارج فاكتسب المزيد من العلم والمعرفة والتجربة، لم يعرف الحسد طريقًا إلى قلبه؛ فقد كان إيمانه بقضية

الرزق إيمان يقين. كان إنسانا سليم الجسد والعقل والروح وكنت تحسبه شابا فى بداية الثلاثينيات وقد تجاوز الأربعين بقليل.

سألته يومًا وهو فى فرط نشوته وثقته بنفسه عقب تحقيق نجاح كبير:

– ألا تخاف.. ألا تقلق؟!

– من ماذا؟

– من أى شىء.. من المستقبل مثلاً.

– أى مستقبل؟

– مستقبلك، مستقبل أولادك، الصحة. الرزق، الموت؟!!!

– أنا لا أخاف إلا الخوف نفسه، ولكن إيمانى يزودنى بالشجاعة دائمًا.

مات فى الخامسة والأربعين وهو فى كامل لياقته وفتوته، على ظهر سفينة فى عرض البحر المتوسط، كان مستلقيًا عارى الصدر بجواره زجاجة من البيرة، وبيده رواية زوربا اليونانى.

❊ ❊ ❊

• العتبة:

يومها بأكمله تقضيه جالسة على عتبة بيتها المجاور لبيتنا، تُحَادث الغادى والرائح كبيرًا كان أم صغيرًا، لا تغادر العتبة إلا لتناول الطعام أو قضاء الحاجة أو النوم، يحمل وجهها علامات جمال قديم قد ذبل لعدم الارتواء.

كانت تحب أمى لأنها الوحيدة من نساء الزقاق التى تَعدهُا وتؤملها دومًا بقدوم العريس، تسمع إلى شكواها من شقيقتها الشابة التى تؤويها، تتهمها بالأنانية وتعزو عنوستها إلى رغبة خبيثة فى نفس هذه الشقيقة التى تنعم بالزوج والأولاد والمسكن والمطعم والمشرب.

تشيد الشيخة صالحة للجميع بزوج شقيقتها المهندس المعمارى الكبير الذى يحن عليها بالقول، والفعل ويوصى زوجته بالاهتمام بها وإجابتها إلى كل طلباتها، فتدعى الاستجابة أمامه، لكنها لا توليها أدنى اهتمام، مكتفية بتوبيخها لكثرة جلوسها على العتبة وضجيج الأطفال الملتفين دومًا حولها.

لم أعرف من أمى أو من غيرها لماذا آل حال الشيخة صالحة إلى ما هى عليه، إذ تعلمت أختها وتزوجت من رجل مرموق؛ بينما بقيت هى أميةً، ولم تعرف السكن إلى أحضان رجل.

دفعنى الفضول -فى صباى- إلى التودد إليها للوقوف على سرها، فلم أحظ منها إلا بكلمات متناثرة عن البخت والنصيب وإرادة الله؛ سألتها عن والديها فطلبت لهما من الله حسن الجزاء. حاول شاب فاسد من الحارة أن يختلى بها فنهرته بشدة وفضحته على رأس الحارة.

بعد ما قُتلَتْ شقيقتها برصاصة طائشة فى أحد الأفراح، فوجئت بزوجها يمنعها من الجلوس على العتبة لأول مرة.. ثم فوجئت به يطلبها للزواج لتعيش فى كنفه وترعى أولاده، لكنها فيما يبدو، لم تحتمل الصدمة.

* * *

• الدرجـــة:

انتظر الأستاذ فريد ظوغلى بفروغ صبر إحالة رئيسه إلى التقاعد؛ حتى يتحقق حلمه الكبير وأمله الوحيد فى الحياة؛ لكن رئيس المؤسسة لم يصدر قرارًا بتعيينه رئيسًا للقطاع الإدارى خلفًا لرئيسه؛ لم يعرف النوم الطريق إلى عينيه، وهو المحب للتميز والشعور بالأهمية القصوى التى تتضاءل أمامها أهمية الآخرين.

دفع بكل الوساطات الممكنة ليحث رئيس المؤسسة على سرعة إصدار القرار، صار يقضى ليله ونهاره يجوب أروقة المؤسسة ويمر فى جولات ليلية مفاجئة على عمال الورادى؛ تناثرت من حول الأقاويل العابثة والنكات الساخرة، فأضمر فى نفسه الانتقام من مروجيها حين يجلس على المقعد المنتظر؛ تراه يحدثك وعيناه تحومان حول وجوه الجالسين ليرقب فى لهفة مدى تأثير حديثه عليهم حتى لو كان الأمر لا يعنيهم فى شىء.

ماتت شقيقة رئيس المؤسسة فبعث إليه ببرقيتى عزاء: الأولى على الشركة والثانية على منزل الأسرة، ثم حطّ نفسه فى طابور أسرة الفقيدة وراح يتلقى العزاء من الآخرين، وسألت رئيس المؤسسة.

– لماذا لا ترقيه وتخلصنا من إزعاجه؟

– إنه رجل معتوه لا يصلح للإدارة.

– جربه بالانتداب فإن أفلح يُعيّن.

– إنه حالة مثالية للميجالومانيا.

بمجرد أن يصل الأستاذ فريد إلى مكتبه يسأل موظفيه بنبرة فوقية:

- «هل صدر القرار؟»

فتجىء الإجابة مخيبة لرجائه.

منعه الطبيب من العمل المرهق، ونصحه بالراحة على الفراش لأسبوعين على الأقل، ولكنه لم يمتثل.

لحظة صدور قرار الانتداب -لا التعيين - كان ممددًا على بساط غرفة مكتبه والموظفون ملتفين من حوله فى كثرة دافعها الفضول المجرد، حين فك أحدهم ربطة عنقه وهو يصيح:

- يا اخواننا أوسعوا من حوله فهو بحاجة إلى الهواء.

ويرد آخر بعد أن أمسك برسغه قليلاً بين أصابعه:

- لا تتعبوا أنفسكم .. البقية فى حياتكم.

فى اليوم التالى قرأت نعيه فى الجريدة معنونًا بوكيل الوزارة فريد ظوغلى مأمون.

❊ ❊ ❊

• **الخادمـــة :**

استشهد زوجها فى الحرب، اشترت منزلاً، وصارت تؤجره كشقق مفروشة، تعود من عملها الحكومى لتلتقى بالسماسرة

وتتفاوض معهم، تشرف على العمال الذين يقومون بصيانة المنزل، تعد الطعام، تراجع الدروس مع الأولاد، تشترى لوازمهم. تستأجر لهم المدرسين الخصوصيين، وتنفق بسخاء على طعامهم وشرابهم وكسائهم فتنسى نفسها تمامًا.

تقدم للزواج منها رجال محترمون لكن قرارها كان حاسمًا بأن تفنى عمرها فى خدمة أبنائها، وصل أكبرهم إلى البكالوريوس ثم مات فى حادثة؛ هاجمها المرض بضراوة، تخرج الولد الثانى فى الجامعة، وهاجر مع خطيبته إلى كندا.

انهالت بكل ما تبقى لديها من طاقة على الولد الثالث، وكانت تخدمه كما لو كان سيدها، عرف الطريق إلى الخمارات ونساء الليل والمخدرات الحديثة، عاودها المرض بضراوة أشد، لم تفلح معها سبل العلاج الكيميائية أو الإشعاعية، تحولت من جمال آسر إلى هيكل آدمى مخيف، رغم ذلك جاء شقيق زوجها يجدد عرضه بالزواج منها، قالت له: إن أمنيتها أن تمضى البقية الباقية من عمرها فى خدمة ولدها الثالث، لكن الزمن لم يمهلها لتحقيق أمنيتها الغالية.

❊ ❊ ❊

• **الفيلسوفة :**

إسمها حنّة. خرساء؛ لكنها تستطيع النطق ببعض الأحرف آء، أو، با.. وغيرها .. كانت تقوم بتنظيف منزلنا مرة كل أسبوع؛ ما إن تدخل فترانى حتى تخرج من صدرها لفافة صغيرة من الحلوى تقدمها لى وتقبلنى فى حنان، ثم تخلع ملاءتها فى صمت وتؤدى عملها بإتقان. غير أنى كنت أفاجأ بحضورها أحيانًا فى منتصف الأسبوع دون استدعاء، تستقبلها أمى وشقيقتى بترحاب زائد، تقف فى منتصف غرفة المعيشة لتبدأ فى الرقص الشاكى مستخدمة يديها للتعبير بالإشارة مستعينة ببعض الحروف التى تستطيع النطق بها،وتتمايل يمينًا ويسارًا وهى ترقص معبرة عن حال ابنها المجند الذى حكم عليه بالسجن لغيابه عن المعسكر عدة أيام، ثم تنتقل إلى زوجها العاجز قعيد المنزل بلا عمل يدخن السجائر ويشرب القهوة ليل نهار، وتعود إلى زوجة ابنها فتقلدها فى حركاتها وأفعالها وتسخر من أنانيتها وتسلطها على ابنها.

أرقبها فى دهشة شديدة تذكرنى بذات الدهشة التى كانت تنتابنى بينما أرقب الفرخة وهى تترنح بعد أن تذبحها أمى،وتواصل حنة الرقص بينما تصفق أمى وتطبل أختى، وتنطلق ضحكاتها

مجلجلة، فتضحك معها حنة حتى تدمع عيناها فتمسح دموعها بطرف فستانها، وتجلس لاهثة تستعيد أنفاسها، فأعرف أن المجلس سوف ينفَض عما قريب.

ولما علمت بوفاتها أثناء تناول الغداء تركت نصيبى من صدر الفرخة دون أن أقترب منه.

* * *

نشرت فى جريدة الأهرام فى ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٠

زمـن الإنتـرنت

• **محمـــــود:**

استخرت جلالته فألهمنى بإشارة أيقنت أنها تخصنى وحدى، وعلى أثر ذلك سعيت بحب فى كونه الفسيح..خمسون عامًا من المكابدة الصادقة والعمل الدؤوب، مسلحا بالصبر والتسليم، أتنفس النوايا الحسنة متغافلاً بوعى عن غدر الأيام وطول الرحلة وأراذل الطريق من إنس وجان؛ ذلك أن هناك سكينة متربعة على عرش قلبى، لست أدعى معرفة واثقة بسرها، وإن كانت تمنحنى أنفاس الحياة، وتضخ فى دمى أملاً، وترسم على وجهى ابتسامة المطمئن فى زمن الإنترنت الرهيب الذى يكاد يخلو من الرحمة، والذى استبدل فيه البشر وحدانية السوق بوحدانية الله.

قالت لى الإشارة الملهمة:

لا تقصد أخاك «غنام» الشحيح النفس، فهو آخر مخلوق على ظهر هذا الكوكب الصغير يمكنك أن تنتظر منه العون..

وحذرنى صديقه الحميم «مرسى» من مجرد التفكير فى اللجوء إليه، فهو تاجر مثله، وعلى دراية كافية– من خلال تعامله معه – بخسة طبعه فيما يتعلق بالمال.

قلت له رغم ثقتى بأنه يصدقنى القول والنصح:

– لكنه أخى، ابن أبى وأمى، ولقد من الله عليه بفيض من الرزق، والأقربون أولى بالمعروف.

– أنت حر، ولكنى أخشى على عزة نفسك من تحجر مشاعره.

حضرتنى روح أمى، وأدركت لأول مرة – تحت ضغط الحاجة الموجع – مغزى دعائها القديم المتكرر بألا يكلنى الله لكلاءة غيره ولو كان أخى.. ورغم إدراكى أن الدنيا لا عنوان محدد لها يمكن للإنسان أن يبحث عنه ويسأل فى أمان ويتقصى، إلا اننى قلت له والرجاء فى الله يغمر قلبى:

– أنت تبالغ، فمهما وصل به الأمر، الا أنه سيرق لحالى حين يدرك مدى كربتى.

قال لى بنبرات شديدة الاشفاق علىّ من جهلى:

– لا يطلب الفضل إلا ممن جعل الله رحمته فى قلوبهم، لا ممن جعل فيهم سخطه.

فاجأته بقولى المختصر:

– لهذا قصدتك قبل أن أقصده!

بانت علامات الدهشة على وجهه، فكيف أقصده ولماذا –وهو الغريب– من دون أخى وهو الشقيق؟.. لعله يعانى من حرج تقديم العون لى– ان كنت أفكر فى ذلك– بينما يبعد مقر أخى التجارى عن مقره بشارع قصير.. أو لعله يخشى أن أورطه فى وساطة لاجدوى منها..لكنه سارع بالقول فى إخلاص واضعا حد يده على عنقه بأسلوب أولاد البلد البسطاء:

– رقبتـــى.

***

• **مرســـــى:**

مساء اليوم نفسه قلت لغنام فى جلسة منفردة:

– طلب منى شقيقك محمود قرضًا قدره عشرة آلاف جنيه

انتفض غنام مذعورًا:

– كـم؟!!

– عشرة آلاف.

– لماذا؟

– تقتضى الأمانة ألا أبوح بالسبب، غير أنه عاجل وخطير

كان السؤال الطبيعى الذى أنتظره منه هو:

– ولماذا قصدك من دونى؟!

لكنه لم يسأله، وإنما قال بثقة راسخة وفى عبارة إملائية رصينة:

– كأنك لم تكلمنى فى هذا الموضوع.

ساد بيننا صمت أسود، وإذا به يقطعه متسائلاً فى لهفة محمومة بحب الاستطلاع المجرد عما سواه:

– وماذا ستفعل معه؟

– إنى أريد مساعدته، ولكنه كما تعلم موظف محدود الدخل، لن يقوى على الانتظام فى السداد.

بدت علامات سرور أصفر على وجهه..

– هذا صحيح.. وإن اجبته إلى طلبه فلن تكفيه عشر سنوات لتسديد هذا المبلغ.

– لهذا جئت إليك.

قال غنام متوجسًا من نفسه ومن الكون والحياة والموت والدنيا والآخرة والأخوة والأخوات والزوجة والأبناء والأصدقاء والأعداء.. ورحمة الله:

– لست أفهـم.

– لتسدد عنه أى قسط حين يتعثر فى سداده، هذا إن كنت تضمنه لى.

قال فى سرعة غاضبة تفوق البرق:

– أنا لا أضمن نفسى.. قل له إنك مديون لى بضعف هذا المبلغ، وإن حالتك المالية لا تسمح بإقراضه شيئًا

– إنى أخجل من أن أتخلى عن معونة رجل شريف أعوزته الظروف.

أجاب بلهجة الصديق الناصح:

– إن كنت مصرًّا فقيِّده بشيكات بنكية حتى تضمن حقك.

ثم عاد فكرر طلبه بألا يعلم محمود شيئًا عما دار بشأنه من حوار بيننا.

❊ ❊ ❊

• **محمـــــود:**

انفجرت فى نزيف من الضحك، غير أنى رجوت مرسى أن يعيد على مسامعى غير مرة نص عبارته الأخيرة كما سمعها من غنام، فأعادها حرفيًّا:

– إن كنت مصرًّا فقيده بشيكات بنكية حتى تضمن حقك.

حين توقف نزف الضحك وبدأ نزف الروح، وأنا مثله تمامًا، لم أكن فى الأزل شيئًا مذكورا، وفى الأبد لن أدرى بشىء على الإطلاق.. ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، وقال لى سيدنا على كرم الله وجهه – مثلما قال له تمامًا – «اذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى».. فقلت لمرسى:

– حمدًا لله، لقد نجحت خطتنا، وإنى مدين لك بخالص الامتنان؛ لأنك حفظت لى ماء وجهى وعزة نفسى باعتبار أننى أجهل تمامًا ما دار بينكما من حوار، وإنى لم أطلب منه بنفسى شيئًا.

قال مرسى بأسى:

– ألم أقل لك؟

– بلى، ولكن كان ينبغى ألا أقصر فى الأخذ بالأسباب.

– لاتضيع وقتك إذن، وابحث لنفسك عن مخرج آخر لأزمتك.

وبعد تنهيدة مسافرة قلت له من ذروة الدهشة:

– لم تكن أقصى شطحات خيالى تتصور تلك النهاية للتمثيلية التى اتفقنا عليها معًا

– أقسم أننى على استعداد لتحويل التمثيلية إلى حقيقة بأن أساهم بقسط لا بأس به من المبلغ

– حفظك الله ورعاك يامرسى.

وإنى والله لفى حيرة من كينونة جبلتك ياغنام، فأنا لست أقف منك موقف الناصح المحتاج، أو المحتاج الناصح، حتى أعلمك بأنه ما اعز الدرهم أحد إلا أذله الله، وإنما أنا مشفق على نفسى من قضاء الله الذى أنزلك إلى الدنيا معى من الرحم نفسه، لتمنع الغريب عن مساعدتى؛ ثم لا تكتفى بذلك، وإنما تنصحه بأسهل وسيلة لوضعى فى السجن لو لم أسدد له ما على!!..لعلك يا أخى كنت حريصًا على مصلحة مرسى من نفسه، على الرغم من اعترافك بأنك لا تضمن حتى نفسك..

وينظر مرسى إلى عينى فلا يرى شيئًا، وإلى وجهى فلا يستبين غضبًا أو تسامحًا، لكنه لايستطيع أن ينظر إلى ما هو أبعد من ذلك، ولئن استطاع فهذا من شأنه وحده، وتكفيه استجابته إلى طلبى باقتحام صدر غنام واستبكان نفسه كيما أراها ببصيرتى وأعقلها بقلبى، فإنها لا تعمى الأبصار..

– لى عندك رجاء يا مرسى.

– ما هو؟

– أن نكتب معًا فصلاً جديدًا من القصة.

– كيف؟

– تدعى له أنك قررت إقراضى المبلغ وتطلعه على إيصال أمانة وهمى أكتبه على نفسى.

– لماذا؟

– دعنى أحتفظ بالإجابة لنفسى مؤقتًا.

– يا لطول أملك أيها الرجل!.

❊ ❊ ❊

• **مرســـى:**

ما إن التقانى غنام فى الموعد الذى ضربته له حتى سألنى فى لهفة:

–هاه؟..ماذا فعلت مع محمود؟

– أقرضته المبلغ لقاء إيصال أمانة.

لم يطلب الاطلاع على الإيصال كما توقعت، وإنما قال على الفور دون أن ينظر إلى وجهى، وكأنما يحدث نفسه:

– جازاك الله كل خير.

وعلى الفور غير مجرى الحديث، ثم لم يلبث أن اعتذر عن اضطراره إلى الانصراف متعللاً بحجة واهية.

قال لى محمـود فى حزن نبيل:

– صف لى اللحظات التى سبقت قوله الأخير.

– المسألة ليست بحاجة إلى وصف.

– كيف؟

– لأنه قالها على الفور وكأنه أزاح عبئًا ثقيلاً عن صدره

– ألم تقرأ على معالم وجهه شيئًا ما ؟

– لا تنس يا سيدى أننى تاجر لايبرع الا فى قراءة الأرقام، وعلى الرغم من ذلك فقد حاولت؛ لكنى لم أجد شيئًا على وجهه يمكن قراءته.

– إذن لم يبق إلا فصل الختام

– الحق أنك أرهقتنى يا محمود بلا جدوى، ولكنى سعيد بصحبة أفكارك ومشاعرك.

– دبر معى لقاء عفويًا يجمع ثلاثتنا على المقهى الذى يقع بين مقر تجارتيكما

– كيف؟

– ادعه على فنجان قهوة للمناقشة فى شئونكما التجارية، وسوف أمر عليكما بمصادفة مصطنعة.

❊ ❊ ❊

• محمـــود :

تم الفصل الختامى بنجاح، إذ مررت على متجر غنام سائلاً عنه فدلونى على مجلسه بالمقهى. ذهبت بحجة مبتكرة بررت حضورى

تبريرًا مقبولاً، حين قبلنى غنام وأخذنى فى حضنه كما تكذب المرأة.. ثم شاءت الظروف أن أشهد صفقة شراء مخزن صغير للبضائع دفع فيه غنام أمامى للبائع عشرين ألف جنيه عدًّا ونقدًا، أخرجها من حقيبة صغيرة موضوعة أمامه على المائدة.

خيم الصمت على ثلاثتنا بعد انصراف البائع، كان واضحا أن أحدنا لا يجد كلمة واحدة يريد أو يستطيع أن يقولها بصدق للآخر.

لمحت الهاتف المحمول موضوعًا بجوار الحقيبة فحاولت كسر ذلك الصمت المؤسف بقولى:

– يقولون إن هذا الجهاز يسبب أمراضًا بالمخ.

أجاب غنام ساخرًا بثقة فرعونية:

– إنهم يقولون. هذا ارضاء لمن لا يمتلكونه وتخفيفًا عن حقده على حامله.

كان هدفى الأوحد من فصل الختام أن تواجه عيناى عينيه بما حدث، لكنه لم يتح لى هذه الفرصة قط، وكأنه كان عليمًا بمخبوء صدرى.. راح يشكو بجرأة وحرقة من نقص السيولة المالية ومتاعب عماله وموظفيه الذين يحبون الحصول على ماله دون جهد يذكر..

حاولت بأقصى ما منحنى الله من طاقة على الصبر أن تعكس له عيناى عتاب قلبى وتبكيان جرحه، لكنى لم أستطع.

مرت أمامنا عربة أجرة، فاندفعت إليها فجأة مشيرًا إلى سائقها بالتوقف، وودعتهما بعبارة خاطفة.

❊ ❊ ❊

كتبت فى ١٩٩٧/٩/٢٣ ونشرت فى جريدة الأهـرام فى٢٠٠٣/٤/٤.

المسعـــور

يبلغ من العمر أربعة وسبعين عامًا، ويمشى بسرعة ابن الثلاثين، واللهم لا حسد. طويل رشيق أنيق جميل، أرى فيه معادلة إنسانية صعبة الحل، فهو يتحدث عن الله كثيرًا وعن الآخرة فى خشوع ورهبة..لكنه يجرى إلى الأولى بأسرع من لمح البصر فى ذعر شديد.. أما حين يصلى فإنه ينقر ركعاته كنقر الغراب فى عجالة مضحكة، ولا مانع من النظر يمينًا أو يسارًا خلال الصلاةِ، ليستطلع من دخل المعمل ومن خرج منه.

يردد عبارات مؤثرة للغاية عن فناء الدنيا وبقاء الآخرة، وعندما ينهمك فى العمل أراه يتفانى فيه إلى حدٍّ مخيف، كما لو كانت القيامة ستقوم بعد ربع ساعة. يقول: إن المال لم يعد يلزمه فى شىء بعد أن أصبح جدًّا لحفدة كثيرين ينعمون بحياة هانئة، لكنى تفحصت معالم وجهه فى أكثر من مناسبة وهو يحصى أوراقه المالية بعينين زائغتين فى اتجاهات شتى، كمذعور يتوالى شهيقه وزفيره فى لهاث محموم، فلم أجد تبريرًا مفهومًا لتلك الظاهرة الغريبة.

...تستهوينى حالته فأرقبه بشغف وصبر ودهشة.

يتوالى حضوره إلى المؤسسة بلا توان، حتى فى أيام العطلات الرسمية، ويجبرنى على التواجد معه. يغرق فى أبحاثه وتجاربه ودراساته المكلف بها من قبل المؤسسة فى جلد يعجز عنه شاب موفور الصحة مجنون الطموح، لا أستطيع ملاحقة سرعته الجنونية فى الأداء والإنجاز العملى والنظرى لنقاط المشروع الذى أعمل به تحت إشرافه كخبير متخصص يندر مثيله فى مصر، وتتنازعه العديد من المؤسسات المنافسة لحل مشاكلها الفنية المستعصية، لقاء مكافآت مالية باهظة. حين يفيض بى الكيل أصرخ به مستنجدًا:

– الرحمة يا دكتور.. على مهلك قليلا حتى ألتقط أنفاسى.

– اعمل ولا تتكلم فسيظل الوقت يسرقنا دائمًا.

– ولكنى بحاجة إلى قسط من الراحة حتى أستطيع المواصلة.

– ألا تخجل من نفسك وعمرى يناهز ضعف عمرك؟!

– تعبت..

– لو نظرت إلى العمل على أنه غاية لا وسيلة، لما شعرت بالتعب أبدًا.

ولولا أننى كنت على يقين من أنه يتخذ من العمل مجرد وسيلة للكسب المادى لما جرؤت أن أقول له:

– وما ذنبى أن أعطاك الله قدرة خارقة وحرمنى منها ؟

وأكتشف فجأة أن الليل قد انتصف بنا ذات يوم بين جدران المعمل الكيميائى، وأننى لم أضع فى فمى لقمة واحدة منذ تناولت إفطارى بالمنزل، بين الحين والآخر كان يُخرج من حقيبته علبة صغيرة من البسكويت الجاف، يمد يده أمامى بقطعة متسائلاً فى خوف:

– تأكـل؟

وقبل أن أجيب بلا أو نعم، تكون يده الممدودة قد انسحبت متراجعة فى سرعة خاطفة إلى فمه، يقرقض به قطعة البسكويت كفأر خائف جوعان.. ثم لايلبث أن يحقن نفسه بالأنسولين معبرًا عن عزوفه الأبدى عن اشتهاء أى صنف من أصناف المأكولات المحببة إلى الخلق كافة.

كان المستشار الفنى السابق لمؤسستنا يدعونى كثيرًا إلى تناول الغداء أو العشاء معه فى المطاعم الفاخرة، ويصر على توصيلى إلى منزلى بعربته الخاصة، وكان لا يتحدث كثيرا عن الله والآخرة.

على الرغم من ذلك تستهوينى حالته فأرقبه بشغف وصبر ودهشـــة.

عطلت بنا عربة الشركة ونحن فى طريقنا إلى بيتينا.. الدكتور نادرًا ما يخرج عربته من جراج منزله، فهو لا يقبل بديلاً عن استخدام عربات المؤسسة التى تستأجره عملاً بالمثل الشعبى الشهير:«المحتاجة غناجة».

فكرت فى استئجار تاكسى، فقد استبدت بمخيلتى صورة فراشى وأنا أغط فوقه فى نوم عميق. رحب بالفكرة فى سعادة بالغة، فبيته يسبق بيتى، وهو الأحوج منى إلى الراحة، وأنا الأحوج منه إلى أجرة العربة التى سوف أدفعها صاغرًا، مثلما أدفع للدروس الخصوصية وفاتورة التليفون، قال لى بمجرد أن وضع نفسه على مقعد العربة:

– سأتصل بك تليفونيًّا بعد قليل لأخبرك بموعد حضورى غدًا.

تذكرت عادته حين يطلبنى فيرد عليه أحد أبنائى وينادينى.. فما أن أمسك بسماعة الهاتف حتى أجده قد أغلق الخط، فأطلبه ليظل يتكلم بلا انقطاع على حساب فاتورتى، فى البداية ظننت أنه عيب من الخطوط التليفونية، ولكن تكرار الفعلة جعلنى أوقن أنه يستمتع بالحديث على حسابى.

كنت أشفق عليه، فهو أستاذى القديم بالجامعة، وللأستاذية عندى قدسية خاصة حين تقترن بالشيخوخة القاسية، فى الوقت ذاته كنت أحسده على قدرته الفائقة على مواصلة العمل ليل نهار برغبة عنيفة فى التشبث بالدنيا –كموهوم بالخلد– تفوق شهوة شاب للجنس كرغبة غريزية فى البقاء.

توقفت العربة أمام بيته، تحسس جيوبه فى ارتباك شديد، لم أتصور أنه يفكر فى استخراج حافظة نقوده قط.. تلك الحاوية الجلدية المهترئة التى لا تفتح إلا للاستقبال.. صاح فى جزع:

– نسيت سلسلة مفاتيح البيت فى المعمل!

– والعمل؟!!

– لا مفر من العودة فزوجتى مسافرة ولا أحد بالبيت.

لم يكن من اللياقة أن أترك الشيخ فى هذه الساعة المتأخرة من الليل؛ ليعود وحده إلى المؤسسة النائية، فقررت الذهاب معه. لكنه كان قد اتخذ القرار نفسه من قبلى، فبدا جميلى فى نظره واجبًا لا أستحق الشكر عليه ولو فى قاع ضميره السفلى.

فى الطريق حدثنى باستفاضة عن سر اختياره لى للعمل معه دونًا عن بقية زملائى، فهو يثق فى أمانتى العلمية ثقة عمياء،

لم أصدقه فى أعماقى؛ لأننى سبق أن شاركته غير مرة فى تلفيق بعض التجارب تحت ذريعة وجوب طاعة التلميذ لأستاذه.. ذريعة لم أهضمها، ولكنى ابتلعتها والسلام.

قال: إن الإنسان ينبغى أن يتحلى بالأمانة والشرف، لا سعيًا إلى احترام الناس وتقديرهم، وإنما لأنه لا ينبغى أن يكون خسيسا أمام نفسه. اشتكى لى من ضيق وقته وطول صراعه مع الزمن، فهو مطالب بإعداد المحاضرات لإلقائها بالكلية كأستاذ متفرغ، ومطالب بحضور اجتماعات مجالس ادارات مؤسسات كثيرة فى أكثر من مدينة خلال الأسبوع الواحد.. كما أنه مطالب بالتواجد فى أكثر من مؤسسة أخرى لتقديم استشاراته، بحيث يبلغ أقصى مناه أن ينام لساعات أربع على الأكثر من كل يوم.

قلبنا المعمل رأسًا على عقب دون جدوى؛ ذهب يبحث عن السلسلة فى دورة المياه، حين وقع بصرى بالصدفة على فاتورة المشتريات التى سوف يحصل بموجبها على ثمن بعض أجهزة اشتريتها له بنفسى منذ عدة أيام؛ أدهشنى أن أقرأ رقمًا مخالفًا للثمن الحقيقى يكاد يصل إلى ضعفه. عاد إلى المعمل منكسرًا شاحبًا.

تذكرت فى تلك اللحظة أنه كان قد وضع المفاتيح داخل حقيبته، راح يواصل البحث وقد استبد به الإعياء والتعب.

لم أخبره عن مكان المفاتيح.. تركته منهارًا وانصرفت عائدًا إلى بيتى.

على الرغم من ذلك ما زالت تستهوينى حالته، فارقبه بشغف وصبر ودهشة.

❊ ❊ ❊

المواطـــن

فى لحظة استرخاء صافية تأملت حياتى بعمق شديد، استغرقت فيمن أنا؟ وأين موقعى من الوطن والعالم؟ وماذا فعلت من خير وشر فى هذه الدنيا؟ وماذا فعلت لى هى الأخرى؟ وما الذى ينبغى أن أرجوه من البقية الباقية من عمرى على سطح هذا الكوكب السابح فى الفضاء الكونى العظيم؟

من طباعى المتأصلة حبى الشديد للاختصار حتى فى الأحلام، فأنا لا أحب كثرة الكلام؛ وإنما أسعى للوصول إلى مبتغاى فى خط صارم يصل نقطة انطلاقى بالهدف مباشرة؛ سواء فى أسلوب التفكير أو الإنجاز أو التعبير.

خلصت إلى أننى قد ولدت على أرض هذا الوطن بمحض مصادفة لا شأن لى بها، وإلا فإننى كنت أفضل أن أولد فى إيطاليا مثلاً، أو فى لبنان القديم، لقد أمضيت أكثر من خمسة عقود من عمرى أبحث عن أصل وثيقة مواطنتى فى أرجاء الوطن كافة.

اجتزت أهوالاً يشيب لها الولدان حتى عثرت على صورة باهتة منها مخبأة فى طيات نفسى.. عنوان الوثيقة كان: «عقد مواطنة». والوثيقة مذيلة بتوقيعين؛ هما الوطن والمواطن؛ أما المواطن فقد كان توقيعى تحته واضحا باسمى كالشمس، وأما الوطن فكان مكان توقيعه خاليًا. ظننته فى البداية قد مسح أو كشط أو أزيل لسبب أو لآخر. ولكنى تأكدت بالفحص المجهرى الدقيق أن التوقيع لم يوضع قط. ولما كان مضمون الوثيقة يؤكد أنها تعد لاغية ما لم توقع من الطرفين، فإنه لا يحق لى ادعاء المواطنة رغم كونى مواطنًا.

تذكرت كيف سبق لى أن بذلت الممكن والمستحيل كى أقنع الوطن بالتوقيع دون جدوى، رغم أنه وقع ببساطة شديدة لغيرى من الناس، قلت: لا بد إن الخطأ من عندى. فالذين حصلوا على توقيع الوطن آدميون مثلى من لحم ودم وأعصاب، يتحدثون اللغة نفسها، ويتنفسون من الهواء نفسه.

تفحصت بنود الوثيقة عشرات المرات، فلم أجد بينها شروطًا لا تنطبق على حالتى، رغم ذلك فقد تبين لى بمراجعة وثائق شرعية عديدة أن أصحابها يتمتعون إما بالثروة أو بالسلطة أو بكليهما معًا. حينئذ أيقنت أن هناك تفرقة غير عادلة وأننى غير مسئول– لخطأ محتمل من جانبى– عن فقدانى لشرعية المواطنة، فما ذنبى أننى لست ثريًّا أو صاحب سلطة؟! أنا لا أومن بأننى مسئول عن ذلك أدنى مسئولية سواء فى عالم الملك أو فى عالم الملكوت.

ومع أننى ألتقى فى كل دقيقة من عمرى بالطرف غير الموقع إلا أنه لم يعرنى الانتباه اللازم قط، قلت له إننى رجل شريف حُرٌّ، جادٌّ مخلص، متفان فى عملى راض بقليلى، لا أدس أنفى فى حياة غيرى، ويسعدنى أن يكون كل المواطنين سعداء، انتظرت منه لمسة حنان أو نظرة عرفان، فطال انتظارى، وما زلت منتظرًا، ولكن إلى أجل غير مسمى، فلصبرى حدود.. ولأننى متوحد فى داخلى مع الطرف غير الموقع لشدة عشقى لكل شىء به جميل أو قبيح، فإننى لم أفكر لحظة فى إيلامه أو إغضابه، وإنما ازددت تودداً إليه وعطاء له ورغبة فى الفناء فيه، منحته ابنى الشاب فالتهمه فى حرب قذرة دفاعا عن وطن آخر.

خضت معارك شرسة ضد أعدائه من أهل الفساد والذمم الخربة ذوى البأس والنفوذ، انتهت بى إلى مصحة للأمراض النفسية والعصبية، عولجت فيها على نفقتى الخاصة حتى استنزفت كل ما تبقى لى من مدخرات، فانتقلت بأسرتى للمعيشة فى شقة متواضعة بحارة أكثر تواضعًا على دخل لا يكاد يفى بأمان الأسوار الأربعة ولقمة العيش وكسوة العيال.

تتلمذ على يدى مئات من الشباب، فغرست فى أعماقهم قيم الحق والخير والجمال قبل أن أغرس فى عقولهم العلم والمعرفة.

وبعد عمر طويل من التجاهل واللامبالاة من جانب هذا الطرف غير الموقع، دعوته ليتناول معى مشروب الكركديه الأسوانى الجميل.

جلسنا على شاطئ النيل، والنخيل يحيط بنا، والعصافير المصرية تزقزق فى سعادة والناس الطيبون ذوو البشرة السمراء العاشقة يحيطون بنا من كل جانب، وعلى وجوههم ترتسم ابتسامة قدرية مذهلة، ونسمة الخريف تهفهف من حولنا فى نغم شجى ينساب فى أغوار الزمن، فيتردد صداه بين جنبات معبدنا الفرعونى العظيم، سألته فى مودة بالغة وتحديد قاطع:

– ما المطلوب منى على وجه التحديد حتى تقنع بالتوقيع على الوثيقة؟

– وما أهمية توقيعى ما دمت تمارس حياتك على أرضى فى حرية؟

– إنى أنشد شرعية الانتماء.

– لقد أنهكنى التوقيع لملايين غيرك، لكنهم لم يلتزموا بحقوق الشرعية وواجباتها .

– وما ذنبى؟

- أنت منهم وهم منك.
- لكنك ما زلت توقع لغيرى حتى اليوم.
- لأن الحياة مستمرة ولا مفر.
- إنى أشعر بالظلم.
- أمر طبيعى ألا تسود العدالة العالم.
- لقد بذلت لأجلك ما لم يبذله كثيرون غيرى من الحاصلين على توقيعك.
- قل: إنه الحظ.
- بل إنه البلاء العظيم.

تأزم الموقف وقام الطرف غير الموقع غاضبًا لاحتدادى الشديد، لم يكمل شراب الكركديه.

وأصر على دفع الحساب وانصرف.

عدوت من خلفه أتوسل إليه أن يحدد لى واجبات أخرى أقوم بها لأجله حتى يرضى، لكنه التزم الصمت ثم اختفى عن ناظرى.

* * *

نشرت فى جريدة أخبار الأدب ٨/١١/٢٠٠٩

ترانيم قصصية

• عندما يجف النبع:

فى ذروة لحظات الانتشاء ونحن نرتشف من نبع الحب قلت لها:

– لو مت قبلى فسوف أقتلك.

نظرت إلى فى دهشة ساخرة؛ إذ كانت ملامحى تنطق بالجدة وأنا أطلق إنذارى المجنون، لم تستطع أن تنفجر فى الضحك فراحت تمطرنى بقبلاتها فى كفى وفى عينى، ظلت تتفرس فى وجهى طويلاً، ثم سألتنى فى شجن.

– وماذا أفعل بك لو مت أنت قبلى؟

– اقتلينى.

وكنت على يقين فى تلك اللحظة من أن الحب والجنون لا يختلفان كثيرًا، ولطالما أسقمنى العقل وأعيانى بحكمته وبروده

وحياده.. فليرحل عنى ولو إلى غير رجعة ولتبق الحبيبة فى قلبى وفى دمى وخلاياى.

فى دقائق الوداع الأخيرة خيم شبح الفراق على الغرفة الحزينة، وانعكست ظلاله القاتمة البغيضة على وجوه الحاضرين فيما عداى، كان انقباضهم خوفًا منه، أما سكونى فكان إجلالاً للقدر.

أمام الظاهر والباطن والوصل والفصل ومالك الملك والملكوت وقفت أتساءل ماذا بمقدورى أن أفعل غير أن أرضى؟! ها هى تستعد أمامى للسفر وأنا ما زلت أتمتع بقلب يرتع فى نبضاته دافقا دماءه الوقحة فى أعضائى بغير توقف.. أما حائط الغرفة التى تحوينا فعمره أطول من عمرى وعمرها معًا، ولست أعرف متى سألحق بها إلى المقر الأخير!

وتختفى من أمامى فلا أستطيع أن أقتلها ... وتعز علىّ الحياة فيستبد بى الموت وأرى الأشياء مضببة، وتكر السنوات السعيدة أمام عينى كومضة من البرق، ويتحول الكون إلى لغز سرمدى قد انبعث كشبح من الماضى يحيل الحاضر إلى مرتع للرعب، وأما المستقبل فلم يرد على بال، وإنما هى لحظات من الشجن المقدس، والخوف، والرجاء .. والأمل.

***

• **العسل المحروق:**

فى إغراء فقد نكهته وزمنه، كشفت له عن فتنة فاق عمرها الخمسين عامًا، حين خرّ على ركبة ساقه السليمة يقبل قدميها ضارعًا متوسلاً .. قالت فى حسم:

– دع خطيبتك وتزوجنى.

قهرته دموعه فانجذب إلى لهيب العشق الحارق، منتشيًا باشتعال سنواته العشرين قربانًا لمعبد الحرمان العتيد.

غادر نواح أمه مشيعًا ببصقة فى الوجه من خطيبته، لينتقل إلى منزل الأرملة بعقد رسمى، منحته قطرات من عسلها المحترق فأنفق عليها وعلى بناتها الثلاث كل ما أوتى من رزق محدود.

كلما استزاد من العسل لم ينل سوى قطرات مرهونة بالمزيد من الإنفاق على تجديد أثاث البيت العتيق، وشراء الملابس والأجهزة، والخروج فى نزهات خلوية وتناول الغداء فى المطاعم التى لم يفكر يومًا فى ارتيادها من قبل.

استدان حتى يلعق المزيد، لم تر عيناه سخرية القوم من فاجعته، كان يرى أشياء أخرى لا يبصرها ولا يدرك مغزاها سواه.

تكاثرت عليه الديون فلجأ إلى الاحتيال، ثم إلى السرقة، ولم يبق أمامه إلا الفرار قبل أن يفتضح أمره فيلقى سوء العقاب.

راقبوا منزل الأرملة شهورًا طوالاً، ولكنه لم يظهر، صبوا عليها غضبهم ووعيدهم وراحوا يبحثون عنه فى كل مكان دون جدوى.

بحكم قضائى حصلت الأرملة على الطلاق وباعت الشقة بمحتوياتها، ثم غادرت المدينة سرًّا بصحبة بناتها لتقيم فى مدينة أخرى.

ويومًا لفظ به جحيم الوجد إلى ينبوع العسل، مضحيًا بحياته متجاهلاً عواقب ظهوره.. لكنه وجد أغرابًا بالمنزل.

هرول بساق تجر الأخرى مسرعًا إلى الشارع يعوى غير عابئ بمطارديه:

– أين أنت يا أم أزهار؟!

***

• **لذة الداء:**

كلما لمحته جالسًا القرفصاء كتمثال فى حديقة المسجد، استبد بى ذلك الداء الخبيث الذى لا يفارقنى، فتمنيت أن أكلم هذا الإنسان أو أن أعرف عنه شيئًا أداوى به شغفى المريض.

يجلس صامتًا كهرم صغير، وجهه وجه كاهن كبير فى معبد أسرار المعرفة المقدسة، عيناه تبصران فى عسر شديد، أما نظراته ففى أعماقها لا تنتهى حدود الإدراك لكُنهِ الحياة.

هكذا تصورته حتى تحققت أمنيتى يومًا أن أقتحم أسواره بلا مبرر سوى خضوعى القهرى للذة الداء، علمت أنه كان تاجرًا ميسورًا عُرف بالإحسان والكرم، فى غفلة من الزمن اختفت زوجته ولم تعد، دون أى بادرة من جانبها قد تنبئ أو توحى بحدوث مثل ذلك الغدر المباغت.. وفى اليوم ذاته جدت كارثة غير متوقعة قضت على ثروته تمامًا.

يقول لى: إنه غير عابئ بكل ما جرى له، إذ تمرس على التسليم للقدر، لكن ما يحزنه حقًّا أن ابنته الوحيدة- قرة عينه- التى كان يتكئ عليها فى حياته أعادت سيرة أمها باختفاء مماثل ضاعف من حيرته وذهوله وأحال حياته إلى ظلام دامس، وقد سلم بعجزه عن معرفة السببين.

أخفى أهل الحى عنه ما أشيع عن مصرعها تحت عجلات القطار.. وقيل إنها تزوجت من شاب سافر بها إلى بلاد بعيدة. وقال بعضهم بصدق شديد: إنها جاءت يومًا تبحث عنه فلم تعثر عليه حول المسجد.. يردد من حين لآخر فى استسلام أليم:

– ربما جاءت فى اليوم نفسه الذى سافرت فيه؛ لأبحث عنها فى البلد!

ويتمتم دائمًا أنه واثق من مجىء ذلك اليوم الذى سوف يسمع فيه صوتها الحنون، ويتكئ على ذراعها البضّ ولو مرة واحدة قبل أن يلقى ربه.

كلما حاولت إثارة الحديث عن سر اختفاء زوجته يمم وجهه بعيدًا عنى فى شرود.. وأتمتم أنا الآخر للمرة المائة:

– ما كان أحرانى بالالتفات إلى حالى وترك أحوال الناس!

* * *

• مقتضى الحـــال:

لا أنكر أننى تمتعت كثيرًا بأن ظللت عمرى كله أفكر، كما لا أستطيع أن أنكر أننى لم أستطع التوصل إلى حقيقة ما، والأدهى أننى أصبت من إدمان التفكير بأكثر من عاهة؛ مثل عجزى عن اتخاذ أى قرار، وترددى المعذب بين الخيارات، واعتقادى الجازم بأننى أفتقد الذكاء.

دقت ساعة الدهر صفرًا فدبت الحياة فى خلايا مخى الهلامية من جديد، ورحت أتذكر رفاق الرحلة الطويلة المرهقة، وكيف كانت علاقاتنا حميمية تتحدى الزمن؛ تبين لى أن كلاً منهم قد مضى إلى حال سبيله فى المكان والزمان.

تساءلت كيف أستطيع مواصلة الحياة بعد أن كتبت لى من جديد، كنت على وشك الاختفاء النهائى من سجل الأحياء التائهين فى لمحة كالبرق ودون مسئولية من جانبى، لكنه القضاء القدرى المحكم ولا شىء سواه.

سبحت فى سحب الهموم اليومية المملة وأنهار الخوف من بطش الأيام القادمة، وبحور اليأس من قدرتى على الوفاء بالتزاماتى الجبرية تجاه البشر، حتى إننى تساءلت من جديد عن المعنى الجوهرى لحياتى التى لا تريد السير على هواى، لكنى لم أعثر على إجابة.

تجاوزتنى العربة وقد انطرحت أرضًا؛ بينما اصطدمت هى بالحائط بعد أن اقتحمت الرصيف الذى كنت أسير فى أمان عليه.

أصيب السائق المتهور بإصابات بالغة، وتجمع الخلق للفرجة والكلام والتطفل؛ تقبلت تهنئتهم بالنجاة، وكنت أتعجب لذلك فهم أولى منى بالتهنئة على حياة يمارسونها بعزم ودون تردد، فيا لهم

من شجعان حتى لو كانوا جديرين بالرثاء بدلاً من التهنئة، أما أنا فقد عاودت التفكير فى التخاذل والمقاومة والعقل والقلب والصلاة والصيام والرقص والغناء والنوم والبكاء والذل والسطوة، حتى أصبحت من ذوى العاهات، رغم أننى أفلتُّ من الموت بأعجوبة، وقدرٍ لى أن أعاود مواصلة الحياة.

***

• هجرة أم رشـاد:

كانت تسحبنى من يسراى بيدها الحانية الدافئة وخطواتها المسرعة القلقة، وتحثنى تلقائيًا على ضرورة ملاحقتها، الشعور بحماية الأم يحيطنى بطمأنينته ودفئه فلا أرى العالم إلا من خلال عينيها.

– إلى أين نذهب يا أمى؟

– إلى تيزة أم رشاد.

– لماذا؟

أحبها حتى حين تتجاهل ذكائى لتتهرب من السؤال، ارتباطى الشديد بها يؤكد لى أنها ستصنع منى شيئًا مهمًا.

– أسرع حتى لا نتأخر عليها فلا نجدها فى انتظارنا.

لم أكن أعرف لماذا تصحبنى إلى هذه السيدة الثرية الغامضة غير مرة كل عام، قرب دخول المدارس وقبل حلول الأعياد وفى مناسبات أخرى أجهلها.

تفتح لنا باب الفيلا خادمة أنيقة كنت أحسبها شقيقة أم رشاد أو ابنتها.. بعد أن نجتاز الحديقة الجميلة تصحبنا إلى صالة كبيرة يطل شباكها العريض على صفحة الماء الزرقاء بالميناء الشرقى، أسارع إلى الشباك، ألتصق بزجاجه لأتفرج على أسراب النورس وهى تحط فى جماعات متعاقبة على رصيف الميناء وصوارى مراكب الصيد العتيقة، تنظر لى أمى نظرة صارمة دون أن تنطق بكلمة واحدة فأفهم مغزاها المحدد على الفور وهو:

–أجلس بأدبك حتى لا تغضب منك تيزة.

معظم الحوارات بينى وبين أمى تدور بالعيون، دربتنى بمهارة على أن أقرأ ما بعينيها دون أن تفصح عنه، فتعلمت كيف أرى فى الكون معانى الحب والعطف والرحمة.

دقائق وتعود الخادمة حاملة صينية ملونة عليها فنجان من القهوة وكوب من عصير الفاكهة أرمقه بعينين قريرتين، لكنى لا أجرؤ على الاقتراب منه قبل أن أتلقى نظرة السماح التى أعرفها

من عينى أمى، التى لا توجهها إلى أبدًا قبل وصول تيزة أم رشاد.

تهل علينا بخطوات هادئة ووجه سمح عاش ما يقرب من خمسين عامًا فى هناء ورفاهية. لكنى ألمح بفطرة ابن العاشرة حزنًا دفينًا قابعًا تحت العينين الزرقاوين المزدانتين بنظارة أنيقة.

تأخذ أمى فى حضنها بمودة عميقة فيرتج لحمها الوفير، وتبدو لى كطائر أبيض كبير يحتضن فرخه الصغير فى حنو غريزى .. وتثير ملابس حداد أمى تعجبى، فكيف يأتى وليد أسود من أم بيضاء ناصعة، ولكنى أذكر قول أبى الراحل وهو يردد دائمًا:

– سبحانه قادر على كل شىء.

وفى كل مرة كانتا تتبادلان القبلات الضاحكة وعبارات الألفة الشديدة بلا كلفة، وكأنهما عاشتا العمر كله معًا، ثم تقبلنى وتغمرنى بالشكولاته والعملات الفضية اللامعة، وتربت على ظهرى، ثم تأمر الخادمة بفتح الشباك لأستمتع بالفرجة على شِبَاك الصيد والفلايك، وأشم رائحة الأسماك الآتية من حلقة البيع القريبة.

أما اليوم فالأمر جد مختلف، فلقد لمحت من مجلسى بالشرفة دموع تيزة أم رشاد تنهال على خديها المتوردين، فتخلع النظارة، وتمسح عدستيها بمنديل جميل مطرز .. الذى أدهشنى حقًّا أن أمى كانت تبكى معها، ثم تقول بصدق أخناتونى:

– إن شاء الله ربنا يطمئنك عليه ويفك كربتك.

كانت آخر زيارة لتيزه ام رشاد، والحزن يعتصر كيان أمى ونحن فى الطريق إليها دون أن تنطق بكلمة واحدة.

فى الصالة طال انتظارنا. جاءت أم رشاد متشحة بالسواد كأمى تمامًا، طال عناقهما الباكى الأليم، فانفجرت معهما فى البكاء.

اصطحبتنى الخادمة إلى الشرفة فرفضت الدخول والفرجة على البحر بإصرار شديد، توحدت بالحزن قبل أن أعرفه المعرفة الحقة، لم أقو على مد يدى لتناول كوب العصير حين سمعت أمى تقول لها:

– ربنا يصبرك على ما بلاك.

❊ ❊ ❊

فى جلسة هامسة بين أمى وشقيقتى الكبرى اختلست مجلسًا قريبًا منهما، مدفوعًا بحب استطلاع رهيب، حين كان الحديث عن تيزة أم رشاد، قالت أمى بنبرة تنسكب همًّا:

– أم رشاد هاجرت من مصر صبيحة إعدام رشاد.

تساءلت شقيقتى فى جزع:

– ماذا سنفعل الآن؟

أجابت أمى فى طمأنينة هادئة:

– ربنا كريم.

– فوجئت بشقيقتى تسألها فى ضيق ودهشة:

– إنى أتعجب ما الذى يدفع شابًّا غنيًّا متعلمًّا وسيمًا مثل رشاد إلى أن يخون بلده؟!

* * *

بعد ما يقرب من ثلث قرن من الزمان تصادف مرورى بالعربة أمام الفيلا. توقفت قليلاً أسبح فى عالم الملكوت.

كان ولدى الصغير بصحبتى، لفت نظره أننى أحملق شاردًا فى المبنى المتهالك والحديقة الجرداء بنظرات مكتسية بالوجد والأسى فقال لى ببراءة:

– لماذا تنظر باهتمام إلى هذه الفيلا المهجورة؟

قلت له فى شجن عميق:

– تعال بنا إلى مسجد أبى العباس لنصلى معًا ركعتين على روح جدتك العظيمة.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة الأهرام ١٠ / ١ / ٢٠٠٣

الأحمـال

خرج من منزله بنية التوجه إلى العمل ككل يوم منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ركب عربة الشركة وبيده جريدة الصباح، تذكر الله بحرقة وهو يتصفح أنباء الهزائم والانكسارات العربية والإسلامية فى كل مكان، كل يوم تنتقل هذه المشاعر وكل ساعة من مواقع أحداثها عبر آلاف الأميال لتستقر فى قلبه كطعنات قاتلة؛ لكنه لا يموت، وإنما يكتفى باجترار إحباطه وانكساره الداخلى وانطوائه على آلامه واهتزاز ثقته بنفسه اهتزازًا عنيفًا.

ما إن خرجت العربة إلى طريق الكورنيش حتى طوى الصحيفة وراح يتأمل النورس وهو يداعب أمواج البحر المتوسط، كان الجو غائمًا أشبه بجو أوروبا مما جعل بياض أجنحة النورس أكثر نصاعة، وزبد الموج أكثر فتنة وحيوية.

على أحد المقاعد المواجهة للبحر جلس فتى وفتاة يتهامسان، يضحكان فى عفوية دون ارتباط بالعالم، وقفزت سمكة متوسطة

الحجم من المياه على شكل قديفة فى مدار مقوس لتعود مرة أخرى إلى الماء حرصًا على حياتها بعد أن ألقت بنظرة خاطفة على الأرض.

على الرصيف سار عجوز فى خطوة رياضية مرتديًا زيًّا ناصع البياض، وحين لمح طفلاً تصحبه أمه بيدها يلتفت من ورائها ليرقبه فى دهشة تلقائية، لوح له بيده وابتسم، فما معنى أن أذهب اليوم إلى المكان نفسها لأمارس العمل نفسه وألتقى الناس أنفسهم والانكسارات تكاد تعتصرنى حتى النخاع، طلبت من السائق إيقاف العربة ونزلت. سألنى فى دهشة:

– أأنتظرك؟

– لا.

– هل حدث شىء؟

– لا، لم يحدث شىء على الإطلاق؛ ولكنى لن أذهب اليوم إلى العمل.

– لقد قطعنا أكثر من نصف الطريق إلى الشركة فما السبب؟

– السبب لا أعرفه.. مع السلامة.

استمتعت بتساقط رذاذ الموج المصطدم بالحواجز الصخرية على وجهى تحت رصيف الكورنيش؛ وشعرت أن الأكسجين النقى

العبق برائحة اليود يملأ رئتى، ورغم ذلك أشعلت سيجارة لأستمتع بأن أوذى نفسى.

انتقلت إلى الرصيف المواجه، اشتريت من أحد المحلات الصغيرة باكو شيكولاتة صغير وضعته فى جيبى وتحدثت إليها بالتليفون:

– إنزلى فورًا .. يجب أن أتكلم معك.

– .....

– ستجدينني جالسًا على رصيف الكورنيش أمام محل «الصفوة».

– .....

– نعم أعرف أن الوقت مبكر جدًّا، ولكن لا مفر.

عدت إلى الحاجز الصخرى فى انتظارها، أقضم قطعة الشيكولاتة وأستحلب حلاوتها، خيل إلى أننى فى حالة صفاء جعلتنى أكثر قربًا من وحدانية الله وأكثر بعدًا عن خلائقه، وكذلك عن ضرب العراق والقبض على أوجلان، وتبرئة كلينتون، وبيع شركتنا إلى مستثمر رئيس يمتلك الملايين.

إحساسى بفقدانى للملكية الجماعية للشركة ظل ملاصقًا لإحساسى بفقدانى لسلامى الداخلى، ما الذى يجعلنى أخشى المستقبل وهو غيب فى علم الله؟ هل يُعْجَبُ صاحب العمل الجديد بكفاءتى فيبقينى فى العمل لأعاود حمل الصخرة كل يوم حتى تسقط منى فأعيدها إلى موضعها الذى يحدده بمعرفته؟.. هل ينفر من طباعى الحادة الجادة فيقرفنى بسوء معاملته، حتى أحمل عصاى على كاهلى وأرحل دون الحق فى المطالبة بأية التزامات مالية؟

لم أسوّ معاشى المبكر مثلما فعل الكثيرون من أندادى، الذين آثروا السلامة قبل قدوم المالك الجديد خشية الفراغ والاكتئاب والقلق.. هل كنت مخطئًا أم مصيبًا أم أنه الحياد الرمادى الذى اصطبغت به حياتى منذ تجاوزت الخمسين، حتى دعت صديقًا لأن ينصحنى بالحج إلى بيت الله؟..

قطرات الماء المالح تبلل وجهى وتمتزج ملوحته ببقايا طعم الشيكولاته، فأشعر برغبة جارفة فى ألا أفعل أى شىء طوال البقية الباقية من حياتى؛ لكن هناك خمسمائة جنية يجب تسديدها شهريًّا للدروس الخصوصية لأحد أبنائى وهناك مسئوليات جسام فى العمل حول مواصفات مشروع جديد ألقى به على كاهلى، وهناك ثلاثة عشر عامًا أمضيتها مقيدًا على درجة وظيفية لم أتخطها بسبب انشغال الدرجة الأعلى بموظف أقدم منى لا ذنب له فى ذلك، هناك

زوجة أصبحت تضج بأعباء عملها خارج المنزل وداخله، هناك ابنة تستعد للزواج.. هناك ابن شاب لا يكفى دخله لعشرين سنة قادمة أن يدبر لنفسه سكنًا للزواج، وهناك أيضًا ذلك الفتور الذى راح يستولى على همتى حتى كدت أعتزل الناس.

إننى فى أشد الحاجة لأن أضحك، فلماذا تأخرت؟!.. لعلها لن تأتى. ومن الأفضل لى ولها ألا تأتى.. فما الفائدة من أى شىء؟!

* * *

تخلص من ملابسه عدا ما يستر به نصفه السفلى وقذف بنفسه إلى الماء سابحًا فى وجده وراح يغنى مداعبًا الموج الهادئ:

لما أنت ناوى تغيب على طول .. مش كنت آخر مرة تقول

لما أنت ناوى

وكانت الضحكات تتخلل مقاطع غنائه دونما سبب.

* * *

كتبت فى ١٨ / ٢ / ١٩٩٨ نشرت فى جريدة الأهرام ٩ / ١٠ / ١٩٩٩

السماء والأرض

يكذب علىّ الجميع وأصدقهم، لا لغباء متأصل فى طبعى، ولكن لأنى أحب التصديق وأطمئن له، ولأنى تعودت أن أعيش به وعليه، سابحًا فى بحر أحوالى ذاكرًا الله كثيرًا، فبصحبة الذكر ينكشف وبال الغفلة..

«وأخيرًا فهمت يا زهرتى البرية المتوحشة أنك لست الملاك الذى تتوهمين، والذى تودين لو توهمته فيك أيضًا... أنت كائنة مثلى من لحم ودم وأعصاب› الفرق بينى وبينك أننى اكثر جرأة منك على الصدق .. فأنا لم أنكر أنى أشتهيك أحيانًا، رغم نزوعى الجوانى المخلص إلى الطهر والعفاف› لكنك لم تبوحى -ولو همسًا- باشتهائك لى فى الأحيان نفسها، وإنما أنا الذى لمسته بكل خلية من خلايا جسدك، وأحسست به نارًا فى لمستى ليديك، وتذوقته جمرة ملتهبة على شفتيك، وأبصرته فى انغماض عينيك المسبلتين المرتعشتين، وسمعته انهيارًا فى زفيرك المتهدج وشهيقك المتقطع وأنفاسك اللاهثة.. وعرفت فى حسنك بديع صنع خالقك، وتداخل شوقى إليك بشوقى إلى الأسمى».

وحين يتبين لى أننى خُدعت، وان ما صدقته كان كذبًا، فإنى غالبًا ما أحسن التصرف المضاد فى مواجهتى للآخرين بعد ذلك، سواء أأخفيت غضبى أم أعلنته فى ثورة جامحة لو تمكن منى شيطانه اللعين..

«رغم ذلك فأنت تضللينني عن عمد وعن غير عمد أيضا بمقولتك المكررة:

– أريد لحبنا جناحين لا قدمين.

وقد افترقنا لاستحالة امتزاج الصدق بالكذب، فأنت تتمتعين بقدرة خارقة على إظهار غير ما تبطنين» ..

رغم أن حياتى ما زالت حافلة بمعاشرة الكذابين فى كل مكان، ورغم أنهم أذاقونى ويلات عذبتنى كثيرًا، إلا أننى لم أحاول أن أغير من طبعى، أو أن أدخل عليه بعضًا من التعديل أوائم به ذلك الانفصام السخيف – عند معظم الناس– بين ما يضمرون وما يقولون أو يفعلون، ذاك أن عاشق الحق يقتل روحه قبل أن يطلبها الأجل، وذاك أن جنتى وبستانى فى صدرى فعلى الدنيا السلام ..

«ولقد عجزتُ عن الاكتفاء بالأجنحة فأعلنت لك عجزى، ولأنك عقل بلا قلب فقد رفضت عجزى المعلن، وأفصحت عن قدرة كاذبة على الطيران، منكرة وقوفك معى على الأرض .. والحب فى جوهره

أرض وسماء.. وما حبى لك إلا قربان إلى الله أسأله به حسن الختام».

حين عرفتها قلت: إنه لو كذب علىّ العالم بأسره وصدقت هى وحدها، لكنت مصيبًا فى منهجى الذى لم يتغير تجاه الناس والحياة، ولازدادت سعادتى به، وازداد اقتناعى بقبول عواقبه. لكن غيبوبتى طالت فى السماء قبل أن أفيق على الحقيقة الصارخة، التى جعلت الباطن يهدم ما بنيته فى الظاهر..

« ولأنى قلب قادر على استيعاب جمود العقل وبرودته القاتلة، فإنى لم أستطع التواصل معك، أو أنك لم تستطيعى التواصل معى؛ سيان. أما الغريب فهو أننا لسنا صنوان، ولا بأس فى ذلك، لكننا بالقدر نفسه لسنا نقيضين.. ولطالما بذلت لى شفتيك أعب من رحيقهما المسكر دون أن تتوقفى بعقلك كثيرًا أمام الأجنحة أو الأقدام؛ كنت تنتفضين فى حضنى كبلبل تعرض لصهد حارق وقد غبت عن وعيك بالأرض والسماء معًا.. وكنت تهيمين فى أنغام كلماتى الحلوة بأذنين غارقتين فى نعيم اللحن الذى أشدو به إليك، الذى ما زلتِ تحتاجين بكل مهجتك إلى مواصلة الاستماع إليه»..

أما الحقيقة الصارخة التى هدم فيها الباطن الظاهر فلن أعلنها الآن.

قلت لها:

– إنه لا خير فى أى شىء بهذا الوجود من دون حبك.

وكنت واثقًا من صدقى، فالصادق واثق دائمًا، والواثق دائمًا صادق؛ لكنى لم أكن أدرى أن الدنيا نَفْى لا توفى لحبيب، فما أجدر بى اليوم أن أنفيك عن نفسى حتى تنفك عنى قيودك.

قالت لى:

– أحبك يا مجنون.

لست أدرى حتى الآن ما كنه هذا الجنون فى عرفها غير سعادة استكثرت على نفسها أن تصدقها.. ليتها تعرف أن العشق انفصال عن الذات وارتماء فى الآخر.. انه الدعوة الملكوتية للتنعم بالجمال المطلق.

قلت لها:

– إن حبك قد غمر روحى بنفحة نورانية من الجلال والرحمة.

وما زلت دائم التذكر بأننى ومحبوبتى زائلان، وأن طول انتظارنا للزوال بحاجة إلى ذكر ووجد ورقص وأسفار!

قالت لى:

– أنت كارثتى

وكأن الحب حين داهم حياتها المقفرة فى غفلة من الزمن قد جعل عالى كبريائها سافله..

«لماذا لا تسفرين عن مكنونك يا شمس الحسن الغاربة، أطلعينى على داخلك فإنى تواق إلى الفل والياسمين وخرير المياه وزقزقة العصافير».

قلت لها:

– حين تغيبين عنى ينتابنى خوف عظيم من الدنيا والناس والمجهول.

وأنا مازلت خائفًا من كل شىء، رغم أن الصادق لا يخاف شيئًا قدر خوفه من الخوف نفسه.. وكانت الثمرة يانعة أمامى، وكانت قشرتها شديدة الرقة تتشقق من فيض العطاء المحبوس، فتسيل دموعى لحرقة النداء ولا أقرب منها.

قالت لى:

– الحب عندى قرب بيننا، لا فناء لأحدنا فى الآخر.

وفكرت بعمق فى قولها إذ أعجبنى كثيرًا، لكنى رفضته فأنا أعشق التوحد بالمحبوب.

وقالت لى:

– لن أتنازل عن امتلاك عقلك وقلبك معًا فأحدهما لا يكفينى وحده.

غمرتنى الفرحة لروعة مطلبها فتهت بين الفكر والفرحة، وتغربت أسرارى، وهامت روحى فصارت تئن من روحها وتتشوق فى الوجد إلى برجها النارى، بينما هى تنظر إلى فى كبرياء مستتر من علياء سمائها بعينين تقطران مودة وحنانًا.. وندمًا!!

وأتلو الرقى وأنفثها فى روحها دون جدوى، كأنى أحب عدمًا..

.. وأما الحقيقة فهى أن كل الناس الذين يمشون بقدمين على هذه الأرض كذابون.

* * *

كتبت فى٣/٤/١٩٩٨ فى جريدة الأهرام ١٧/٧/١٩٩٨

قوس قزح

• **الزمـــــان:**

ضاقت به الدنيا فلم يجد مكانًا يؤويه سوى المقابر.. وبحكم العادة تضاءل شعوره بغرابة النهاية غير المتوقعة لرحلته فى الدنيا؛ حتى ألف واقعه الجديد وتعايش معه؛ أما ذلك الشبح الهلامى حامل القنديل فلم يعد يزعجه، فى المرة الأولى صرخ فزعًا حين رآه يحوم حول مقبرته.. جرى بعيدًا وراح يرقبه وهو يحوم حول المقابر مرددًا فى نبرة واثقة تنم عن تصميم شديد:

– لا بد أن أعثر عليها يومًا.

لم يعد إلى مقبرته إلا بعد أن تلاشى ذلك الكائن الشبحى الغامض، وظل يرتعد خوفًا طوال الليل فلم ينم لحظة واحدة .

عندما تكررت الواقعة يومًا بعد يوم، تآلف مع الشبح ولم يعد يبرح موضعه إلى أن ينتهى ذلك الكائن الغامض من طقسه اليومى، ثم يختفى فور انطفاء جذورة قنديله الخافتة.. حتى تلك النداءات

الهائمة التى كانت تصدر من بعض المقابر، وتتبادل الكلمات فى بعض الأحيان لم تعد تخيفه، وإنما راح ينتظرها ويرصد مدلولاتها التى لم تصل به إلى شىء .. لكنه لم يفكر قط فى محاورة الشبح.

تساءل هل يعقل أن تجرده الدنيا من كل شىء ليصبح بين يوم وليلة مخلوقًا وحيدًا عُزلت عنه كل أسباب الحياة ومقوماتها، فيما عدا مصدر رزقه الجديد الذى لا يكاد يفى باحتياجاته من الطعام والشراب والكساء والمأوى؟!

استجمع شتات ذهنه محاولاً أن يتذكر ماذا كان قبل ذلك؟ وكيف كانت تسير حياته دون جدوى؟ فى كل يوم يكرر المحاولة لكن الذاكرة لا تسعفه أبدًا، ولا يدرى لماذا أو كيف تخلت عنه بهذه الحدة المفاجئة.. وعلى أية حال فقد كان عليه أن يبدأ فى صنع حياة جديدة حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

سار إلى الفضاء يعب هواء الخريف فى صدره مستسلمًا فى رضًا لقدره، واثقًا من قدرته على تجاوز المحنة.

حين رأى قوس قزح بألوانه السبعة تسللت إلى روحه مشاعر فرحة مباغتة لم يعرف مكمنها، وقال: إن الإنسان خلق ليحيا حتى يموت، فلا مبرر لإرهاق النفس بحثًا فى المسافة الفاصلة بين حياته وموته، وإنما البديل أن يحياها، وربما كان الخير كله كامنًا فى ذلك

الشلال العاصف الذى قذف به إلى هذه النهاية الموقوتة بين شواهد القبور.

راح قوس قزح يتلاشى أمامه فى تدرج وئيد، هو يعلم جيدًا أنه اللون الأبيض لكن عوامل الطبيعة تحلله فى توقيت محدد إلى مجموعة الألوان الحزينة والبهيجة معًا؛ لهذا كان واثقًا أنه لابد قد تلقى قدرًا لا بأس به من التعليم يجعله على دراية بهذه الظاهرة وأنه كان طفلاً فصبيًّا فشابًّا عرف الناس واختلط بهم وعاش معهم كل تلك السنين الطوال بشكل أو بآخر، حتى تجاوز- حسب اعتقاده - الخمسين.

لعن الماضى رغم جهله به، وتمنى لو تحرر تمامًا من رغبته فى معاودة استكشافه بذاكرة تم تدميرها تمامًا، وكانت ذريعته لذلك تعلق شديد بالحياة مهما كانت معطياتها، وقالت له: إنها ذاهبة ولن تعود. فأصابه ارتباك وفزع وتساؤلات حيرى عن جدوى أى شىء ودهس طفلاً بسيارته؛ ومن باب النصح المستفز قيل له:

- أنت لا تصلح لأنك غير متوائم.

تساءل: هل من الضرورى استيعاب ما مضى من مجهول حتى يستطيع التواؤم مع الحاضر، أم أنه من الأفضل أن يطوى صفحة المجهول واضعًا المستقبل الجديد نصب عينيه؟..

لم يجد إجابة، غير أنه تذكر طفلاً جميلاً يضحك فى براءة والدموع فى عينيه.. لعله كان هو نفسه، أو ربما ابنه، أو ابن قريب

له أو صديق... وظلت الأموال تنهال عليه من كل صوب وحدب فى زمن ليس هو الماضى أو الحاضر، فأكل وشرب ولبس وركب وسافر ورأى وتأمل وانبهر وانتشى، وكان حزينًا فما أجمل أن تبدأ الحياة بدورة جديدة وليكن بعد ذلك ما يكون!

* * *

• **المكـــــــان:**

من الموقع نفسه يظهر قوس قزح مرة أخرى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا.. إذن فأنا مسلم على الأرجح رغم أن ذاكرتى مازالت تعى الكثير من أقوال السيد المسيح، وعلى رأسها: ماذا يفيد الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه..

على أيه حال فالحمد لله أننى مؤمن، ولأن المؤمن كيس فطن كما يقول نبى الإسلام، فلا بد أن أعثر يومًا على نفسى ولو طالت رحلة البحث، فلست أقل إصرارا من ذلك الكائن الشبحى فى العثور عليها، ومع أنى لست أعرف عم يبحث، إلا أننى أعرف تلك الأنغام الموسيقية التى تحف بى أينما ذهبت؛ التى تكاد أذنى تألفها ويسكن إليها وجدانى الطريد.. أما لون بشرة هؤلاء القوم الذين يعزفون تلك الموسيقا ولغة حديثهم وأساليب تفاهمهم، فكلها مظاهر ليس من الصعب علىّ أن أستكشف من خلالها إلى أى حضارة أنتمى الآن.

أمامى نهر وعن يمينى حقل كبير ومن خلفى بحر وعن يسارى صحراء شاسعة تسكنها الجبال.. أما المقابر فلن أعود إليها إلا جثة يحملها تسعة عشر نفرًا أو عشرون، ولكن متى وكيف جئت إلى هذا المكان، فهذه ليست مشكلتى على الإطلاق، كل ما علىّ الآن أن أطلق شرارة الابتداء فى فضاء ذلك الكون الواسع.

* * *

• **المسافـــــة:**

أقرأ الآن جريدة يومية بعد اجتيازى زمنًا لم أقسه، وأماكن لم أعبأ بروعتها أو قبحها..

لا بد أن أتوصل إلى إدراك محدد لكيفية تدبير مكان لى بين هؤلاء الناس الذين يصنعون تلك الأحداث التى أقرؤها الآن؛ فإذا لم يتيسر لى صياغة وسيلة ممكنة للذوبان فيهم، فلا مفر من العودة إلى المقابر بشكل آخر غير السير على القدمين أو الشحن على نقالة يحملها تسعة عشر أو عشرون.

من الحقل جمعت لها صحبة زهور جميلة، وقلت لها: «إنى أحبك» .. ابتسمت قائلة:

– لقد أحسنت البداية.

قال لى هاتف: «لا تفرح فالعبرة بالنهاية»، ولكنى لم أعبأ به لشدة تشبثى بالوصول إلى مخرج من خلال أية بداية ففرحت خلسة.

كنت أخشى أن تذهب وتتركنى أو أن تتهمنى بأننى غير متوائم، فتلد لى طفلاً جميلاً وتنتابنى الحيرة فأفقد إدراكى للزمان والمكان والمسافة، قلت لها وعيناى على قوس قزح:

– لماذا لا نبدأ معًا حياة جديدة؟

قالت بهدوء شديد:

– لا بد أن أعرفك أولاً.

فكان من الضرورى أن أبدأ بمعرفة نفسى!.. وفى تلك الليلة تجاسرت أن أخاطب الشبح فسألته عم يبحث.. أولانى ظهره وهو يحوم بالقنديل مبتعدًا عنى قائلاً دون اهتمام كأنما يُحَدِّث نفسه: «سوف أحقق ما عجز عنه كل هؤلاء الموتى وأنت منهم».

❊ ❊ ❊

كتبت فى ١٩٩٨/٣/٥ ونشرت فى جريدة أخبار اليوم ٢٠٠١/١٠

المرتبـــك

آخيته فى الله فعوضنى كثيرًا عن أخى الغائب الحاضر، الذى أفقده الثراء بصيرته، سحنا فى الأرض كثيرًا، إذ كانت تجارته واسعة مباركة، وكانت رفقتنا معا متعة وجدانية ونعمة لا تقدر عند أحدنا بثمن؛ زرنا اولياء الله فى كل مكان.. حتى قبر الرسول زرته على نفقته، أنزلنى معه فى أفخم الفنادق وذقت بصحبته أطايب الطعام والشراب. كان كريمًا بطبعه، لكن كرمه معى كان فوق الوصف.

أحبه أولادى كثيرًا مثلما أحبهم، وأغدق عليهم من عطاياه بسخاء لم يعرفوه من قبل؛ استحوذ بمحبته الفائقة على ما أتيح لى من محبة لسائر الأصدقاء، فصار جزءا لايتجزأ من حياتى اليومية.

مع طول المعاشرة أسمعنى عن حياته الأعاجيب، فلم أكن أتصور يوما أن هذا الصوفى الزاهد الذى ينفق ما يزيد عن نصف أرباحه التجارية فى سبيل الله، كان فيما مضى زنديقًا عتيدًا يشار إليه فى

عالم الليل بالبنان، ويتهافت على صحبته الماجنة علية القوم من رجال ونساء، لينفق عليهم فى سهراته المعربدة آلاف الجنيهات بلا حساب.

كنا قد تعارفنا منذ سبع سنوات بمحض صدفة من خلال صديق مشترك؛ خيل إلى يومها أن نظراته لى قد قرأت فى عينى كل ما مضى من تاريخى من صفحات ملئت أسطرها بكلمات لا تجدى ولا تدل على شىء على الإطلاق. مجمل القول: إنه أدرك – أو هكذا ظننت – أننى انسان تائه تمامًا، وأن رحلة حياتى عبر خمسين عامًا من الزمان قد أسفرت عن حيرة شديدة، وتذبذب أشد بين نقائض متعددة، وتعاكس قوى بين الفعل والإرادة.

انتشلنى بحنكة من عالم الحيرة إلى عالم المطلق، وكان أصراره على ملاحقتى عنيدًا، فلم أستطع الإفلات من سحر صداقته المجردة من شبهة المنفعة، والمحلقة بأنوارها فى عالم الملكوت.

حينئذ تأكد لى أننى لم أكن تائهًا كما كنت أتصور، وإنما كنت مرتبكا أمام حصيلتى الصفرية من دنيا العمل والحب والأسرة والمال والأخوة والمعرفة والفن والأسفار والأدب والصداقة، وتبوأ المناصب، بحيث كاد الشك يلتهمنى فى جدوى الحياة بكل ما أعطته لى وما سلبته منى، وبكل ما ماج بها من أحزان ومباهج وغرائب وأسرار.. وقال لى يومًا:

– لماذا لا تكتب قصة حياتى، لعلها تكون عبرة لمن يبغى الاعتبار؟

– ألن تخجل عن الكشف عن جانبك المظلم القديم ؟

– ولمَ أخجل وقد غمرنى الله بنوره وكرمه؟.. اكتب كما يحلو لك، ودونَ تحفظ أو حرج.

– يمكننى أن أغير اسمك فتحل المشكلة.

– بل إنى أريده كما هو بغير تبديل.

وكتبت قصة صديقى الحميم وأخى فى الله«عبد الهادى خليل» بكل ما استطعت من إتقان. قال لى بعد أن انتهى من قراءتها:

– لقد نفذت إلى أعماق قلبى وسريرتى إلى درجة خطيرة.

– ولكن بحب.

– نعم، وإن بها لعبرة لكل ضال ينشد التوبة.

– هل أقدمها لناشر؟

– بل سأصدرها على نفقتى وأوزعها لوجه الله.

❊ ❊ ❊

لم تكن زيجته الأولى موفقة لاستحالة توافق طباعه المتشددة فى كل شىء مع طباع زوجته، التى رفضت الذوبان فى طبعه وطبيعته.

ظل عازفًا عن الزواج فيما يقرب من ربع قرن، حتى اقترب من الخمسين، كنت أرى فى نظرته للمرأة نظرة رجعية، وإن كان يبررها أحيانًا فى يقين من منطلقات تقول بأنها ناقصة عقل ودين. وأحيانًا أخرى من منطلق تجاربه القديمة العابثة؛ التى أورثته الشك فى المرأة.. ويومًا قال لى :

– آن الأوان كى أعمل بنصيحتك وأكمل نصف دينى.

– مبارك بإذن الله.

– ستكون أول مخلوق يراها من قبل أن أقدمها أسرتى .

حين التقينا على مائدة عشاء بأحد المطاعم الفاخرة، كان مبتهجًا فوق العادة، قال لها فى سعادة غامرة وهو يهديها الكتاب:

– يمكنك أن تتعرفى علىّ تمامًا من هذه الرواية، فمهما حاولت أن أعرفك بنفسى لن أستطيع بقدر ما استطاع صديقى أن يعرفنى.

أجابته فى فرحة طاغية:

– وأنا لن أنام الليلة قبل الانتهاء من قراءتها.

كان قد طلب من المطبعة نسخًا ثلاثًا قبل الانتهاء من تغليف الآلاف الخمسة المتفق عليها، احتفظ لنفسه بنسخة وأعطانى نسخة، ثم طلب منى أن أكتب اهداء على النسخة الثالثة لزوجة المستقبل.

❊ ❊ ❊

فى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون بمنزلى؛ قال لى صاحب المطبعة:

– إنى لم أر إنسانًا فى غرابة صاحبك

– لماذا ؟

– لقد جاءنى منذ قليل ودفع لى بقية المبلغ المتفق عليه قبل موعده.

– وما وجه الغرابة فى ذلك؟

– أنه حذرنى بشدة من تسرب نسخة واحدة من الرواية لأى مخلوق، وذلك لحين استلامها بمعرفته وحده.

– أفصح أكثر.

– لقد حددك بالاسم.

انتابنى ذهول عظيم فسألته:

– وماذا ينوى أن يفعل بالنسخ؟

– قال: إنه سوف يعدمها.

اتصلت به على الفور؛ وعدنى بلقاء عاجل.. لكنه اختفى من حياتى فجأة، مثلما ظهر فيها... وعاودنى الارتباك، لكنى كنت واثقًا أن بقاءه صائر –ككل الأشياء – إلى زوال.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة أخبار اليوم ١٣ / ٤ / ٢٠٠٢

الموت مرتـــان

أعطاها قلبه وصُلبه وعاش بها مع نفسه وهم السعادة الحالم ما قدر له أن يعيش من سنوات، وحين شاء الدهر أن تنتهى الأوهام وتولى الأحلام سألها الرفق بأمه المريضة، وكانت خطاها تقترب من القبر.

امتعضت وثارت واعترضت، ثم بهدوء أقوى من الموت قالت له أمام أبنائها منه:

– اذهب إليها وقتما تشاء؛ ولكن حين تعود إلينا فلتكن وحدك

عاد من الطبيب حاملاً فى يديه لأول مرة أدوية القلب، وفى أذنيه نصيحة حاسمة بألا يفارق الدواء فى كل زمان ومكان... ثم مات.

***

أما الأخرى فسلمها روحه وعقله وعاش معها فى الوهم الجميل نفسه؛ عسى أن يبعث من جديد، فلم تمض سنوات قلائل حتى أصابه نزف وجدانى عميق لا حيلة له فيه، ولا قبل له به فى خريف عمره وسنوات نضجه.

ولما لجأ إليها قالت له بنفس نبرات قاتلته الأولى:

– ليس لدى ما أقوله لك وليس عندى ما أقدمه إليك.

وعاد من الطبيب حاملاً تلك العقارات المهدئة التى تعالج الانفصام.. ثم مات.

* * *

استنكر فى تمرد جامح أن تنتهى رحلة العمر الواهم الجميل إلى أن يقتل مرتين بلا معنى، وأن يتحايل على حياة عضوية بعقار قلب، وعلى حياة نفسية بعقار تهدئة.. فألقى بالأدوية جميعًا فى صندوق النفايات، وراح يجمع ما تبقى من رحيق روحه المسكوب ليعده قربانًا ليوم مجهول.

* * *

كتبت فى ١٧ / ٤ / ١٩٩٦ ونشرت فى مجلة الكويت

الشـريك

حين تراكمت الخسائر بدأت الشركة فى الانهيار، كان من الطبيعى أن يقاسمنى شريكى الخسارة، ونفضّ الشركة، ويذهب كل إلى حال سبيله؛ لكنه تشبث بى بسبب غامض عارضًا أن يتحمل الخسارة وحده؛ ولسبب أكثر غموضًا رفضت عرضه وقررت الاحتفاظ لنفسى بملكية الشركة الخاسرة.

احتدم بيننا الجدل وتساءل:

– لماذا لا تنفصل أنت وأشترى نصيبك؟

تعجبت لمنطقه المعكوس؛ الذى لا يخالف فى حقيقته منطقى أنا الآخر: شريكان يتشبث كل منهما بتحمل الخسارة سواء بمفرده أو مناصفة مع الآخر.

قلت له وكلانا يغالب دهشته القدرية:

– انفصل أنت وسأدفع لك ما تطلب!

أجاب فى ذهول مطابق لذهولى:

– دعنى أفكر ليومين قبل أن أعطيك إجابتى الحاسمة.

وكان قد سبق ذلك اللغز الإنسانى إعلانات عديدة عن عرض هذه الشركة للبيع، لكن أحدًا لم يتقدم لشرائها بسعر مناسب، بل إن مشتريًا جاءنى ذات مساء حين ظننت لأول وهلة أنه سيعرض ثمنًا معقولاً، لكنى فوجئت به يقول لى بوقار غير مصطنع:

– كم تدفع حتى أقبل تنازلك لى عن هذه الشركة؟!

لم أنفعل بغضب أو دهشة، وإنما رحت أفكر بموضوعية شديدة البرودة فى عرضه الغريب؛ بعد قليل سألته بحياد تام:

– أنا البائع وأنت المشترى فبأى منطق أدفع لك؟

أجاب بثقة مطلقة:

– لست على استعداد للحوار بأى منطق؛ إما أن تقبل وإما أن ترفض، وما بيننا يفتح الله.

أصابنى ثباته اللامتناهى بالتردد، فلعله على حق فى ضرورة أن أدفع رغم جهلى التام بالسبب؛ حسمت الأمر بقولى:

– دعنى أفكر.. أمهلنى يومين قبل أن أعطيك الإجابة.

لم يكن من العقل فى شىء أن أحكى لشريكى قصة هذا المشترى البائع الذى يتحدث بحكمة سليمان؛ قررت أن أتكتم الأمر، ولكنى كنت أغالب فى نفسى ميلاً شديدًا لتسليم الشركة بأصولها كاملة لهذا الرجل بعد أن أدفع له ما يريد.

❊ ❊ ❊

جلست فى الموعد المحدد أنتظر الرجلين، فى غمرة شرودى برقت فى ذهنى فكرة قدسية دفعتنى من مكانى إلى عرض الشارع أركض فى لهفة باحثًا عن أقرب مسجد، توضأت بشغف، وأمام القبلة توجهت إلى من لا شريك له، صليت ركعتى استخارة، توسلت لجلالته أن يجعل لى آية حتى أحسم أمر هذه الشركة المحير، وعدت إلى مكتبى تحملنى أجنحة لا أراها وتحف بى هالة من نور.

فى البدء جاءنى الحكيم فصرفته بأدب حين قال لى بإشفاق:

– إنى أرثى لحالك.

ثم جاءنى الشريك فسألته:

– كم تطلب؟

– أما زلت مصرًّا؟!

– نعم.

أطلق رقمًا خياليًّا يفوق ضعف قيمة الشركة حتى يضمن بقائى شريكًا له؛ أصابه ذعر شديد حين قبلت العرض، وأضفت إليه نسبة من عندى!

أصابه وجوم شديد بعد أن وقعت له الشيكات. قبل أن ينصرف سألنى بمشاعر لمحت فيها المودة ممزوجة بالحسد:

– لماذا تفعل هذا بنفسك؟!

كان النور طاغيًا وكنت أستمع فى نشوة إلى رفيف الأجنحة؛ وأجبته بفرحة كونية دون أن أراه..

– لقد اهتديت إلى الشريك.

❊ ❊ ❊

نشرت فى مجلة العربى فى يوليو ١٩٩٦

الذى لا مفر منه

ظل فرحانًا طوال نصف قرن من زمنه، ترتسم على وجهه ابتسامة ظافرة عريضة واثقة لا تفارقه مهما حدث، نبهه بعض الأصدقاء وكذلك بعض الخصوم إلى ضرورة الاقتصاد فى تلك الابتسامة، عندما تساءل فى دهشة عن السبب قيل له: إنها تضفى البلاهة على معالم وجهه، وإنها تعطى عنه انطباعًا صارخًا بالغفلة، كما قال كثيرون: إنها تثير الاستفزاز والغيرة.

عندما ازدادت النصائح وتكررت التحذيرات خلا إلى نفسه مستنكرًا دس أنوف الناس فى حيوات غيرهم، عاد إلى جذور ابتسامته التى تثير القلق فى نفوسهم.

فى طفولته اجتهد فى الدرس والتحصيل، فنجح بتفوق وكان لا بد من أن يفرح، عين فى وظيفة مرموقة فى شبابه فازدادت فرحته. ادخر مبلغًا كبيرًا من المال، ثم تزوج، وأنجب البنين والبنات وكون أسرة سعيدة.. فما أبغض نكران الجميل والبطر على النعمة،

وما أتعس أن يرسم إنسان سعيد علامة حزن زائف على وجهه دون مبرر.

قال: إن الناس لن يكفوا عن اقتحام حياته مهما فعل، فمن طبيعتهم الغيرة والحسد والنظر إلى ما بأيدى الغير.. وكان قراره فى البداية أن يحتفظ بفرحته على وجهه ولا يعبأ بأحد، فهو لن يحمل حماره على كتفه يومًا مثلما فعل جحا لإرضاء الناس دون جدوى.

ولما توقف الناصحون عن نصحهم والمحذرون عن تحذيرهم، أيقن أنه على صواب، فرأى أن يتوسع فى مساحة ابتسامته توسعًا ملحوظًا، لم يكن يدرى أنه سيؤثر بشكل غير مباشر على طبيعة خطواته فوق قشرة الكرة الأرضية.

ولما أصبح المشى بالخطوة المعدلة هواية أثيرة لديه، فوجئ ببعضهم ينظر إليه فى إشفاق، وببعضهم الآخر ينفجر فى ضحكات مكتومة حين يرونه ماشيًا على قدميه.

وللحق فإن مشيته تلك لم تكن توحى بالخيلاء أو التكبر على خلق الله، لثقته بأنه قد خرج من مجرى البول مرتين، وإنما تختلف عن مشيته القديمة فى ازدياد المسافة التى تباعد ما بين الفخذين ازديادًا ملحوظًا.

لم يعرف أحد السبب فى هذا التحول، حتى هو الآخر لم يعد يفكر فى ذلك، لكنه كان يشعر بشىء من رد الاعتبار حين ينعكس استفزازه للآخرين على نظراتهم المشفقة عليه حينا، والضاحكة منه حينًا آخر.

وبينما هو ماش فى وضح النهار، مباعدًا ما بين قدميه فى خطواته الواثقة، وما بين شفتيه فى فرحته الغامرة، إذا بكتلة مخروطية مدببة الطرف مجهولة المصدر تحوم من حوله فجأة وقد تخيرته دون غيره من مئات المشاة.

التف الناس من حوله فى ذهول وقد أصابه رعب شديد بدد ابتسامته تمامًا، راح يجرى يمينًا ويسارًا؛ ليتفادى تلك الكتلة الغامضة، ولكنها اتخذت من جسده محورًا تحوم من حوله فى إصرار محدثة صوتًا كطنين الذباب الأزرق الكبير.

بدأ بالاستغاثة بالعابرين- رغم يقينه أن مساعدة العبد للعبد كمساعدة السجين للسجين- حين تحول ذهولهم إلى ضحكات ساخرة وهم يتراجعون بعيدًا- فى شجاعة – خشية أن تغير الكتلة المخروطية مسارها إليهم.

تعالت الضحكات الهستيرية، بينما راحت الكتلة تهدئ من سرعة دورانها، ثم تلتف من خلفه لتستقر بعنف فى منتصف

مؤخرته، فيصرخ مقاربًا بين فخذيه لحد الالتصاق وقد ذابت ابتسامته تمامًا واستبدت بمعالم وجهة دهشة عظيمة!

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة الأهرام ٤/٢/٢٠٠٠

الحالم السعيد

قالت لى وعيناها تصبان الوجد فى عينى:

– اكتب لى ياحبيبى كلامًا عن الحب فإنى أعشق كلماتك.. أقدسها.

فكتبت لها:

– حبك يا حبيبتى فرحة تجتاحنى، تحملنى بجناحيها إلى عالم نورانى شفيف، يذوب فيه كيانى بماء المطر ونسمات الربيع وقصف الرعد، أتوحد بالطيور والأسماك والسحب والوديان والجبال والبحار والأنهار، فيسكب قلبى أنوار المحبة على الكون بأسره، وتصير الدنيا كلها ضياء فى ضياء.

* * *

قالت لى والسعادة ترقص على شفتيها الثريتين:

–لا.. لا تكتب، بل قل لى بلسانك الحلو كلامًا عن الحب، فإنى متعطشة إليه.

فقلت لها:

– أحبك يا أعذب لحن فى حياتى، أنت الآية التى أدركت بها محبة الله لى.. أنت عندى العطر والندى والفجر العاشق والأنس الجميل.. أنت حريتى فلولا جناحيك يا حبيبتى ما عرفت كيف أطير.

❊ ❊ ❊

قلت لها بعد أن حلقنا طويلاً فى فضاء العفة ومقامات المحبة والرضا:

– ألم يَبِن الأوان لنختلى معًا بعيدًا عن العيون .

قالت متسائلة بصدقها الجميل الذى امتزجت فيه الرقة بالحياء بدهشة طفلة ماكرة:

– وماذا سنفعل بخلوتنا؟

– لا أكثر من تلامس الأيدى وتلاقى العيون وتعانق القلبين وصمت الأطهار.. أقسم بشرفى على ذلك.

– إنى أصدقك ياحبيبى، وأتمنى بعمرى تلك الخلوة بل أحلم بها منذ عرفتك.. لكنها المستحيل بعينه .

– لماذا؟

– أترضى بهذا لزوجتك مع رجل غيرك؟

– ولكنى لم أتزوج بعد!

❊ ❊ ❊

حل موعد إجازة أسرتى مؤذنًا بفراق أليم يدوم أسبوعًا كاملاً، أعطيتها رقم هاتفى بالمصيف. قالت إنها لم تذهب إلى العجمى طوال حياتها مرة واحدة.كانت مكتئبة حزينة على غير عادتها: بسبب مشكلة مزمنة تواجهها فى العمل. قلت لها:

– لا بد أن كبرياءك العزيز – الذى أعشقه – وراء استعصاء مشكلتك على الحل

– لعله كذلك بالفعل، فأنا لا أشترى منصب رئيسة الوزراء بخدش فى كرامتى.

قبل أن نفترق قالت لى بنبرات مرتعشة:

– سأهاتفك كثيرًا، ولكن أرجوك أن تكتب لى كل يوم رسالة فى الوجد والإخلاص

– وكيف أبعث بها إليك؟

– يوم العودة سأتسلمها منك وألتهمها دفعة واحدة.

❊ ❊ ❊

قلت لها فى الرسالة الأولى:

إن كان وصلك ليس فيه مطمع والقرب ممنوع فعِدنى واكذبِ

فعسى التعلل بلقائك ممسك لحياة قلب بالصدود معذّبِ

وحين انتهيت من هذه الرسالة تمنيت بروحى أن أجدها جالسة بجوارى أداعب أناملها، وتربت على شعرى، وتشجينى بحديثها الصادق العذب.

❊ ❊ ❊

قلت لها فى رسالتى الثانية:

فى حياتى لم أذكر حبيبة وأنا ساجد لله إلا أنت.. هأنا أفتح أمامك أبواب الحياة من جديد على بساتين الجمال والسحر والنشوة، فهيا ادخلى معى ولا تنظرى إلى الوراء لنحضن معًا بروحينا فرحة العمر الجديد.

❊ ❊ ❊

فى اليوم الثالث هاتفتنى بشوق جارف متلهفة لسماع الرسالة الثالثة بأذنيها، قلت لها:

– حين أفتقدك يستبد بى الخوف من الحياة .. أشعر بقلبى موحشًا مظلمًا كئيبًا لا يجرؤ على لحظة من الطمأنينة.

قالت بنبرات دامعة انفطر لها قلبى:

– أبقاك الله لى نورًا يضىء بقية عمرى بالمحبة والأمان.. إنى أحبك رغم أنى لا أكاد أصدق أنى جديرة بذلك!

❊ ❊ ❊

فى اليوم الرابع التقيت مصادفة بجارى فى المصيف، لا أعرف أين يعمل ولم أسأله يومًا عن ذلك، لكنى أعلم أنه ذو منصب رفيع. دعانى لتناول الشاى. قال: إن أسرته ستغيب عن المصيف أسبوعًا لظروف طارئة.. ثم استرسلنا فى حوار مشوِّق حتى سألنى بحنكة المجرب وهو الذى يكبرنى بما يقرب من عشر سنوات.

– هل تعتقد أن هناك امرأة على وجه الأرض جديرة بأن يفنى فى حبها رجل؟

على الفور أجبته بثقة ليال سهرتها، وأحلام عشتها، ورجاء بالوصل يطاردنى الليل والنهار:

– نعم أعتقد ذلك.

انفجر الكهل فى ضحك ارتج له كرشه الكبير قائلاً:

–ما زالت أخضر العود يا عزيزى .. أنت مسكين حالم.

– بل إنى سعيد حالم.

– سأثبت لك قريبًا أنك مسكين حقًّا، فالمرأة لا تحب إلا نفسها، ولهذا فهى لا تقوى على الصدق ولا تحتمله، ولو وضعت على رأسها تاج الفضيلة.

وكتبت لها أقول:

– إنى أريدك بمقدار ما تريدينني وترفضين، فلا أملك حينئذ سوى القناعة بطهرك ورفضك أن نضع نفسينا فى مواجهة دموية مع مجتمع لا يرحم المرأة فما بالك وأنت أرملة!

❊ ❊ ❊

فى اليوم الخامس توجهت إلى جارى قابلاً التحدى مطالبًا بإثبات مقولته، كان وحيدًا كالأمس، قال لى:

– تعمل تحت رئاستى سيدة جميلة شديدة الوقار والكبرياء حسنة السمعة بلا ذرة من شك، لكنها تكاد تجن حتى تحصل على الترقية.

– وهل الترقية من حقها؟

– نعم.

– فلماذا تحرمها منها؟

– لأنى أشتهيها كما لم أشته امرأة فى حياتى.

– وما دخل هذا بذاك؟

– لقد عرضت عليها أن تزورنى هنا بعد غد حيث يكون والدها على سفر.

– .....

– ولو صدقت فستكون عندى فى الساعة الثامنة.

– ولم فعلت ذلك؟

– حتى أوافق على ترقيتها.

– وكيف قبلت وهى التى تحمل كل تلك الصفات الملائكية التى أمطرتنى بها؟

– الذى حدث أنها قبلت، وأننى ما زلت مصعوقًا.. والحق أنى أتمنى من القلب ألا تجىء .

– وإن جاءت فماذا تفعل؟

– لن ألمسها، بل سأصرفها على الفور.. ولن أرقيها ما دمت حيا

– لماذا ؟

– عقابًا لها على سقطتها.

وسألتنى فى الهاتف:

– ماذا تفعل فى وقتك أيها الأعزب القديم؟!

قلت مازحًا من القلب:

– جارى يسلينى بالحديث عن المرأة.

– لعله يجلس أمامك مجلس التلميذ من أستاذه مهما كان عمره، مادام الحديث عن المرأة .

– أبدًا، إنى أشفق عليه؛ لأنه يعيش فى وهم من الظلام.

– إذن اقرأ علىّ ما كتبته لى اليوم.

– اليوم هجرنى ذلك الجنىّ الجميل الذى يملى على قلبى ما يكتبه قلمى إليك.

– ادع الله ألا يهجرك وإلا متّ.

❊ ❊ ❊

فى اليوم السادس لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى الجلوس على صخرة أصطاد السمك وأتأمل فى ملك الله وملكوته.. لم أكتب لها شيئًا، ولم تكلمنى فى الهاتف.. كنت فى حالة من النشوة والصفاء حسدت نفسى عليها.

❊ ❊ ❊

فى الليلة السابعة وفى تمام الساعة الثامنة تمنيت أن يطفئ الله نور عينى إلى الأبد، حين رأيتها تدخل شاليه جارى. تمشى بكبرياء على قدمين ثابتتين.. على يدها تحمل حقيبة أنيقة.. وعلى وجهها تحمل آيات الصدق والبراءة.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة الأهرام ١٩٩٧/٥/٣٠

رحيق الروح

عشر قصص قصيرة جدًّا

١ - تكويم الزمـــن

جمعت الكراسات والملفات التى دونت فيها مذكراتى وأعمالى الأدبية المنشورة على مدى خمسة عشر عامًا مضت، رصصتها فوق بعضها البعض بحرص شديد، كما لو كانت رقائق من زجاج دقيق هش، وجلست أمامها متكئا بوجهى على كفى.

لم أدر إن كنت قد فقدت الذاكرة أم غاب عنى إحساسى بوجودى، وكنت مخيرًا بين أمرين: إما أن أصرخ باكيًا فى انتظار الموت، وإما أن أظل أضحك حتى أستلقى على قفاى..لكنى تذكرت أن قدمى قد مشيتا بى طويلاً من قبل على ضفاف النيل وبردى ودجلة والمسيسيبى عبر سنوات مختلفة، وان خطواتى جميعًا مسجلة على صفحات هذه الكراسات فى إصرار لامعنى له.. أما

الأحذية التى ارتديتها فى تجوالى بتلك الضفاف فلا أثر لها بالبيت أو بالذاكرة؛ إذ ذهبت بما علق بها من تراب مختلفة ألوانه إلى حيث لا أدرى.

ثم جمعت أحاديثى وتمثيلياتى المعبأة فى أشرطة التسجيل وكومتها فى حذر شديد لا مبرر له بجوار صف الكراسات والملفات السنوية، وعاودت الاتكاء بوجهى على كفى..

جالت بخاطرى ذكريات حلوة ومرة طالما جمعت بينى وبين رجال هذه المهنة ونسائها، مترعة بلذة العمل ونشوة الحياة تحت جناحى طائر الفن الجميل.

استبد بى شعور غامض بالخوف من الزمن.. لم أقو على إلقاء كلماتى المكتوبة والمسموعة فى القمامة كما نويت، ولكنى تمكنت بعزم شديد من وضع كومتى الزمنية المحنطة فى حقيبة قديمة تحت بقايا مقعد متهالك بركن مترب فى شرفة المنزل القبلية التى لا يرتادها أحد من عشيرتى، ليكون مصيرها النسيان المحتوم.

❊ ❊ ❊

٢- الوطــن

صفر اليدين أعود بعد طول غيبة، ذهولى يؤازر حسرتى، فالزوجة رحلت بأمر الله، والمال لم يعد بذى أهمية لاحتياجاتى المنقرضة من الحياة، أما الولد فتزوج من أجنبية وهاجر إلى قارة أخرى، تأملت فيما مضى من حياتى فتضاءلت أهمية ما تبقى منها. حتى لو كشفت عنى حجب الغيب وعلمت الآتى بتفاصيله زمانًا ومكانًا، فلن يعنينى كثيرًا.

من غربة أتيت إلى غربة متأهبًا لغربة، لن يذكرنى أحد ممن قضيت عمرى معهم فى تلك البقاع الباردة، حتى ان ذكرنى أحدهم على بعد آلاف الأميال للحظة عابرة– دريت بذلك أم لم أدر– فما جدوى ذلك؟ لن يعرفنى أحد ممن جئت محتميًا بأنفاسهم وأزقتهم ومقاهيهم وعشوائية شوارعهم ورحابة قلوبهم وشمسهم الساطعة وحكامهم الذين لا يتغيرون.

الأمر الوحيد الذى أدرك جدواه تمام الإدراك هو ضرورة عودتى إليهم، وليكن بعد ذلك ما يكون، لقد تنبهت إلى تلك الضرورة يوم أن تعرضت لواقعة واجهت فيها الموت، حين أدركت أن تراب وطنى أولى بلحمى، وأن الطريق التى ينبغى على روحى أن تسلكها إلى بارئها لا بد أن تبدأ من محطة مصر.

❊ ❊ ❊

٣- الرجال البيض

فى غفلة من الزمن انقض علينا بضعة رجال بيض ممن يعملون كأجراء لدى هيئات بيضاء عظمى، قالوا لنا وكان من بينهم من ينتمى إلى قبيلتنا:

– لا فائدة من الجدل ولا مفر من الطاعة ما دمتم مدينين لنا باستمرار حياتكم.

لم يكن هناك مبرر للدهشة مما سمعناه من قول.. فأنا ومن معى نعيش على طعامهم وآلاتهم وأموالهم وأسلحتهم، فانصعنا لهم، فأمرونا ببيع ممتلكاتنا وطرد أصحابها وخفض قاماتنا وتخفيض قيمتنا، فانصعنا لهم، فأمرونا ببيع مؤخراتنا بعد أن تعرت، ورغم صعوبة التسويق فإننا لم نتردد...

وهكذا..ظلوا يطلبون ونجيب، ويأمرون فننفذ، حتى لم يبق لنا إلا أرواحنا..وها هم ينقضون علينا من جديد وقد تهيأنا تمامًا لإجابة مطلبهم الأخير.

***

٤- آخـر العمـر

حين التقينا لم يكن قد تبقى من عمرنا إلا القليل، فلم يعد هناك متسع من وقت أو طاقة للتبديد بغير طائل. لم تعد أبداننا قادرة – كما ينبغى أن تكون القدرة – على بذل الحب والارتشاف من رحيقه الساحر حتى الثمالة، وقد اعترانا الانكماش والذبول، واستسلمنا لجفاف الحكمة وبرودة العقل.

غير أن انطفاء هذا الوهج المجنون لم يفقدنا الأمل، فارتمينا فى أحضان ذكرياتنا المنصرمة، ورحنا نرتع فى طفولتها التى ولت رغم يقيننا بأنها لن تعود. قال كل منا للآخر كل الكلمات التى لم يجرؤ على قولها لأقرب الناس فى حياته أو لأبعدهم عنها. أفضت إلىّ بأسرار ظلت قابعة فى بئر لا وعيها خمسين عامًا أو يزيد، وهى الحريصة الذكية الواعية، فجرت فى أسماعها شكواى من الأيام والظروف والأحداث الجسام، وأنا الصموت الكتوم المنطوى.

استمعت إليها بشغف، واستمعت إلىّ بحنان، ضحكنا وبكينا بحماس مثير أعاد لنا الدهشة والانبهار.. صرنا قادرين على الفرحة والغضب والتفكير فيما يمكن أن نفعله غدًا.. وحين التقت شفاهنا فى سكرة الحياة المنعشة لم يفكر أحدنا فى الموت لحظة واحدة.

❊ ❊ ❊

٥- التسـرب

من بين أصابعى تسربت معظم أمنياتى بدءًا من الطفولة حتى يومى هذا، كنت أحلم بأن أُعلِّق بمنزلى – حين أكبر – صورة زفافى وقد ارتديت « البابيون».هاهى الصورة معلقة أمامى– بلا زوجة– فى تحد صارخ ورقبتى محاطة بـ «الكرافات»..وكنت أتحرق شوقًا إلى العمل الديبلوماسى فأقرأ فى صباى عن الشيوعية والرأسمالية وألتهم سير العظماء.. هأنا اليوم أنفق العمر بين الطلمبات والمواتير والمحاليل الصناعية فى شركة قديمة بمدينة صغيرة تبعد كثيرا عن عاصمتنا المرهقة بالديون وازدحام الناس والعربات والعادم المتسرب من كل مكان إلى الصدور والأرواح.

بكل الثقة تصورت أن تجمعنى يومًا صورة فوتوغرافية بأصدقاء الطفولة من المسلمين واليهود والأقباط أحتفظ بها لأعلم أولادى ما علمتنى اياه أمى أن الأقباط أصلهم يهود، وأن المسلمين أصلهم أقباط وأن العداء بينهم جميعا لا مبرر له..ها هى الصورة لا تظهر الا ما تسرب إلى أمعائهم من شياطين الحقد والفرقة

والكراهية.. وإلى تلافيف مخى تسربت صورة رمادية باهتة لعالم الإنترنت ومرض الإيدز وأقمار التجسس وآبار النفط المشتعلة والرصاص المصوب إلى المصلين بالمسجد.

اندثرت معالم الصورة الوردية التى انطبعت فى ذهنى قديمًا عن مستقبل العالم الذى تمنيت أن أشب مطمئنًا على أرضه، وهأنا اليوم أرقب الشيب يتسرب إلى شعر رأسى ومعه- رغم كل ذلك- يتبقى إحساس خفى لا يتسرب، بالعدل والرضا والإيمان بالقدر.

❊ ❊ ❊

٦- الوهــج

فجأة أبصرت نفسى أقف وحدى عاريًا فى قلب الكون، لم يكن من العدل أن ألقى باللوم على الآخرين وأتهمهم بأنهم تركونى، مثلما لم يكن من العدل أيضًا أن أدعى بطولة الاستغناء عنهم باختيارى.. أما الأسباب الحقيقية التى وضعتنى فى هذا الموضع فلست أعرفها ولا أدرك زمانها.

هبطت أمامى من حيث لا أدرى يحف بها عطر حنون، سترتنى بقماش ناعم الملمس زاهى اللون، لم أفكر فى تأمل ملامحها أو فى مجرد سؤالها من هى؟ ولا من أين أتت؟ أو لماذا فعلت بى ما فعلت؟

كنت على يقين حسمته التجربة من لا جدوى المزيد من المعرفة، وإلا ما انتهى بى المطاف إلى هذه الحال، قالت لى بنبرات تفيض عطفًا وإن لم تؤثر فى ملالتى مثقال ذرة:

– من الأوفق أن تعود.

– لمن ولماذا ؟

– عد إلىّ وسأعوضك عما فاتك

– لم أعد أسيانَ على ما فات، ولن أستطيع الفرحة بما قد يأتي.

ألقيت بقلبى والسترة على وجهها وجريت مسرعًا بعيدًا عنها، استترت وراء سحابة شفيفة من أنغام خافتة تعزف على مقام سر الأسرار.لمحتها وهى تبحث عنى بفضول العاشق، حتى وقفت أمامى ولم ترنى، ولما يئست من العثور علىّ انصرفت، فتملكنى العجب من دموع حارقة تساقطت من عينىّ..

كنت على يقين آخر– فى وقفتى العارية – من لا جدوى المزيد من الإدارة، فأنا لا أريد شيئًا يدفعنى إلى الانتقال من حال إلى حال آخر.. رغم ذلك فقد كانت هناك قوة سرمدية تحثنى فى دأب وحكمة على البحث عن طريق.

وكنت على يقين أخير من أن ذلك الوهج المتألق الذى أستبصره عن بعد بعيد، سوف يجذبنى اليه.. وسوف أعرف وأريد.. وسوف أنجذب إليه..وأحترق!!

❊ ❊ ❊

٧- السبيـــل

قيل لى: إما الجحيم وإما النجاة، فلا بديل عن اختيار فورى حاسم، ولامهرب من الزمان أو المكان، فضلاً عن انه عند توقيت زمنى مستقبلى مفاجئ سيتوقف العقل عن العمل ويدرك الشلل الإرادة وتنتفى علل الاختيار.

قلت: النجـاة.. النجـاة..

ساقونى إلى ساحة إعدام، مقاصل ثلاث متجاورة تتمدد تحت أسلحتها الباترة رقاب ثلاث، تنبض ارتعاشاتها بدفقات رعب انتظار الموت.. وجهان مكشوفان، أما الثالث فمحظور أن أفكر فى رفع قناعه لأعرف من صاحبه أو صاحبته، قيل لى: عليك باختيار واحد من بين الثلاثة. زر واحد تضغط عليه وتنتهى المسألة فتصير حرًّا طليقًا ناجيًا بالخلاص سعيد الأزل والأبد.. قالت ابنتى الجميلة ذات العشرين ربيعا ودموعها تكوى أرجاء قلبى:

– ان كنت أهون عليك يا أبى فلا بأس.. اقطع رقبتى واخلص.

– لا تخافى يا قرة عينى فروحى فداؤك .

وقالت من أفنيت عمرى وأبليت جسدى فى عشقها فلم تمن علىّ بنظرة رضا:

– اعتقنى وسوف أذيقك ما عرفته وما لم تعرفه من نعيم المتعة الخالصة.

اقتربت من الوجه المقنع. وضعت يدى على رأسه فأصابتنى رعشة ولم ينطق، كما لو كان مقهورًا على ذلك. وانحصر الاختيار بين اثنين: روح عذبتنى وروح أجهلها، وقفت طويلاً يعتصرنى عذاب التردد. قيل لى:

– أنت حر فى طول الانتظار، ولكن احذر من مجىء التوقيت المفاجئ وإلا ما استطعت أن تتخذ قرارك.

.. ويا أيتها السماوات والأرض والجبال والأنهار والوديان والمحيطات.. إنى أستغيث بتسبيحاتك ومناجاتك العلوية المباركة.. لا أسأل العون إنس ولا جان فقد عرفتهم ومللتهم وعزفت عنهم.

ظللت أعوامًا عديدة أتردد بين المقصلتين حتى تعلمت تسبيح الطير والنمل والجبل، فخطوت بهدوء إلى المقصلة الأخيرة وضغطت على زر الروح المقنعة.. وإذا برأسى تنفصل فى لمح البصر عن تلك الروح .. وأرقص نشوان بالخلاص.

❊ ❊ ❊

٨- الراكض فى البرية

بقوة جامحة اندفعت فى طريق البحث العلمى وفى نيتى ألا أتوقف حتى الموت. ما إن حصلت على درجة علمية عليا فى تخصصى النادر حتى أصابنى الملل وتوقفت.

بالقوة نفسها اندفعت فى طريق العمل المهنى مكتسحًا فى طريقى كل العقبات حتى حصلت على منصب كبير بعد قتال دموى شرس مع المتنافسين، تعمدت أن أقف عند هذه المحطة غير ساع إلى ما يليها من محطات فى رحلة المناصب العليا المرهقة، كانت كل الظروف تؤكد قدرتى على الوصول إليها.

وبقوة أعتى جموحًا انطلقت فى طريق الفن، ألفت العديد من الكتب وأنجزت العديد من الأعمال، حتى حصلت على جائزة رفيعة المستوى فى هذا المجال، ثم لم أستطع بعد ذلك أن أكتب حرفًا واحدًا أو أنجز عملاً واحدًا، فقد تمكن منى التعب.

احتضنت عودى أبثه حيرتى ووحشتى فأصدر انغامًا شجية تقاذفتنى أصداؤها بين أحوال التغير والزوال..

منذ سنوات خلت لم يكن هذا العود يفارقنى. كنت لا أتصور للحياة معنى دونه، ولكنى أنتزعه الآن من حضنى فى يأس لأضعه بجوارى كأى شىء من الأشياء، فقد استبد بى الزهق.

وقادنى القلب على جناحيه الحريريين إلى رحلة خلتها أروع رحلات عمرى، فقلت: إن الحب تعويض إلهى عادل عن كل ما لاقيت فى حياتى من كد وضجر وملالة وعبث.

حين يتوسد رأسى صدرها الحنون ويحيط ذراعى بخصرها الهش، أغادر الأرض بقهرها وقسوتها وملالتها، لا إلى السماء حيث العدل والرحمة، وإنما إلى كون آخر يفصل بينهما مثلما يصل.. كون برزخى يستقطر فيه عسل الحب والرضا إلى رحيق العشق المتفانى.. وهى تربت بكفها الرقيق الدقيق على رأسى لأذوب فى عبير عطائها المسكر، وكأنها تغسلنى فى ينبوع الخلد المتدفق من هذا الصدر العبقرى، لتزيل عن روحى أدران المادة وأثقال الشقاء، وتمتص ذبذباتى وعذاباتى وقلقى وحيرتى..

أحببتها وتصورت أنها ستكون حسن الختام، لكنى- رغم ذلك- تعبت وزهقت!..

كانت أعراض التعب قد بدأت تحل علىّ منذ سنوات عديدة تزيد قليلاً عن سنوات عمرى الملول، أى منذ أن عانت نطفتى بشدة

حتى تمكنت من التعلق برحم أمى، كانت آلام المخاض رهيبة.. واندفعت مضغوطًا إلى الفضاء الكونى الغامض وقد ازرق لونى وعلا صياحى تعبيرا عن مخاوفى التى لا حصر لها، فأنا قد نزلت من مكان آمن- رغم معاناتى بداخله- إلى مكان مجهول، فعرفت الخوف.. والخوف أول التعب.. والملل آخره !

فى البداية لم أشعر بذلك الخوف فى اندفاعى إلى كل ما اندفعت إليه.. أما الآن فقد صار تعبى فوق حدود احتمالى، فتوقفت عن كل شىء. فضلت أن أستريح وأبتعد، فكانت أولى خطواتى فى طريق القرب.

❊ ❊ ❊

٩- نعمة الهـواء

أجبرنى الخوف على المعيشة فى جحر خيل الىّ أنه آمن، لقد اخترته بمعرفة الأقدار فى بقعة نائية تشرف على الصحراء والنهر والحقل والبحر، كنت أصطاد العصافير والأسماك وأزرع الخضراوات والفاكهة وأربى الدواجن وأخبز العيش دون أن يتعرض لى أحد فى مكمنى القدرى الرهيب.. غير أننى- من باب الأخذ بالأحوط- كنت أغادر جحرى من حين إلى آخر كلما أتت إلى مسامعى أصوات بشرية ولو كانت على بعد كبير من موقعى.. أخرج محملاً بسيوفى ومدافعى، وقد ارتديت درعًا فولاذيًا سميكًا.. أسارع بإطلاق دفعات نيران كثيفة فى الهواء من حولى فى كل الاتجاهات، لإرهاب كل من تسول له نفسه الاقتراب، ثم أعود فى طمأنينة إلى جحرى.. أخلع الدرع الثقيل وألقى بالأسلحة أرضًا وأنام مستريحًا ليتصاعد شخيرى فى السماء.

لكنى صحوت يومًا على لدغة حية تمكنت منى فى قلب جحرى الآمن، فهجرته إلى الأبد بعد أن تخلصت من سمومها، وصرت أعيش فى العراء شاكرًا الله على نعمة الهواء الطلق دون درع أو سيف أو خوف.

❊ ❊ ❊

١٠- الإفــلاس

لم أكن لأصدق يومًا أن الشعور الحقيقى للإنسان المفلس مناقض تمامًا لكل ما يعتقده الناس عنه، إلى أن أفلست من كل شىء وانغمست فى قلب التجربة حتى النخاع.

للمرة الأولى فى حياتى أشعر بالحرية دون حدود، لم يعد هناك أدنى رباط يقيدنى بشىء، فأنا لم أعد راغبًا فى العمل أو الطموح أو الحب أو التفكير أو الحركة الهادفة.. بعبارة أخرى أكثر إيجازًا:

اننى لم أعد أريد شيئا..وتلك روعة الإفلاس.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة الأهرام ٢٨/٢/٢٠٠١

أرق الخمســـين

قال لى زميلى فى العمل بتلقائية صافية وكأنه يحدث نفسه:

– الحياة لم يعد لها طعم.

كانت المرارة تقطر من فمه مترعة بحرقة الصدق، حتى إننى لم أستطع النوم بسهولة فى تلك الليلة.. وحين خيل الىّ أننى غفوت، رأيت الأطفال الذين كانوا يلعبون أمام البيت منذ عشرين عاما وقد تزوجوا وأنجب بعضهم، ورأيت الرجال الذين كنت أناديهم بلقب العم وقد شاخوا ومات بعضهم، والنساء اللاتى كان عبيرهن يهفهف فى حنايا السلّم، وضحكاتهن تجلجل فى أرجائه وقد شابت شعورهن وتهدلت أثداؤهن وجلودهن، وصار الأبناء والحفدة محور أحاديثهن.

التقينا جميعًا فى قطار يقوده بهلوان يتوقف به حيثما يحلو له التوقف، ليعاود السفر بنا إلى المكان الذى لا يعرفه ولا يعرفه أحد منا، فى محطة يلقون علينا الورود وتطلق النساء الزغاريد، وفى

محطة نسمع صراخًا وعويلاً، وفى محطة أخرى يأمرنا بالنزول لنرقص ونغنى ثم يهرول مسرعًا إلى عجلة القيادة يحثنا على الهرب، حين تنطلق مدافع وتنفجر قنابل وتدوى ضحكات ماجنة يعقبها نشيج مكتوم، ويصيح راكب مخمور فى سعادة:

– ما أجمل الحياة!

ويخيل إلى أننى فى تمام الاستيقاظ حين يطرق بابى زميل دراسة قديم، حاملاً معه عقد عمل فى بلاد النفط والدولارات قائلاً فى حماس مقزز:

– هذه آخر فرصة فى عمرك.

وأصعد إلى الطابق الأخير من مبنى مركز البحوث العلمية، فأنتقى غرفة مهجورة مظلمة أختفى فيها من الخوف، متمنيًا أن أرى شبحا آدميا يخترق الصمت، حين يظهر عم سالم الساعى العجوز، يبتسم لى فى استسلام كاشفًا عن البقية الباقية من زمن أسنانه الصفراء المثرمة متسائلا:

– اعمل لك« شاى» يا أستاذ؟

وتنبعث آخر فتيات أحلامى من بين الظلمات فآخذها فى حضنى، وأربت على شعرها وظهرها وخدها، وأقبل عنقها.. تدفن رأسها فى صدرى قائلة فى أمومة جميلة:

– غنّ لعمرك الباقى.

بعد حلم القطار كنت متيقظًا تمامًا وفى كامل وعيى لكل أحداث السنين الماضية، ابتداء من سلم المنزل، عبورًا بالقطار الذى يقوده البهلوان، وانتهاء بفتاة الأحلام، الكل فى لحظة بدأ وانتهى رغم أنه يبدو ما زال كائنا..وسألت زميلى فى العمل:

– لماذا تقول إنه لم يعد للحياة طعم؟

أجاب بنبرة لا تخلومن تهكم وهو يحملق فى وجهى:

– اسأل الأرق المطل من عينيك.

انهمكنا فى تناول الطعام وكلانا يجتهد قدر طاقته، محاولا استشعار ما انصرم من لذة دون جدوى، أما النساء فلم ترد على الخاطر.. ويهبط عم سالم من الطابق العلوى حاملاً كوب الشاى ومعه أسنانه المحطمة وسنواته اليائسة وابتسامته المسالمة، فأسأله فى حيرة:

– لماذا تضحك يا عم سالم؟

نظر إلى فى بلاهة ولم ينطق.. لكن صوتًا رخيمًا شديد العذوبة غنى فى مسامعى بصوت عم سالم، وكنت طائرًا فى السماوات العلا على جناحى نشوة غامضة، غافلاً عن صديقى الذى يبدو

إنه كان يثرثر فى عصبية بكلمات مقتضبة عن شعوره بملالة الحياة بعد الخمسين، وقد بدأ يفقد الشعور بلذة الطعام والشراب والجنس، مثلما بدأ يفقد الاهتمام بمتعة العمل والسفر والقراءة ولقاء الأصدقاء.. وكلمات أخرى غاضبة عن بدء تآكل الأعصاب والعضلات والتهاب البروستاتا والقولون، وكلمات غائمة عن الدنيا والآخرة والموت والنار والجنة والملائكة والشياطين والفقر والغنى والحظ والسعادة و...و...و...

❋ ❋ ❋

نشرت فى مجلة حواء ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٢

التمثيليـة

كانت تلك هى المرة الأولى التى أكتب فيها عملاً دراميًّا للإذاعة وباللغة العامية. سبق أن أصدرتُ العديد من الروايات والقصص القصيرة خلال ربع قرن، فلم يصل صوتى إلى الناس، ولو فى همس خافت، لا شك أنه أمر يستحق دراسة مستفيضة، ولكن ليس هذا هو موضوعنا الآن، بل إلى أجل غير مسمى.

كُتب النص على الآلة الكاتبة وتم تصويره نسخًا عديدة بحيث يتسلم كل ممثل ورقه كاملاً، جلستُ خلف المخرج فى الاستوديو، لاحظت على الفور أنه الملك المتوج للمكان بغير جدال، فالكل طائع لأمره بغير مناقشة، والكل ملتزم بتقديم فروض الولاء وإظهار مشاعر الود والامتنان له، حتى لو كان الباطن غير ذلك.

حين سمعت اسمى يتردد بين جنبات الاستوديو بصوت عظيم مجسم، تملكنى زهو جميل، فلولاى لما جلس المخرج على مقعده هذا، ولما وجد هؤلاء الممثلون عملاً يُظهرون من خلاله مواهبهم

الفذة ويتقاضون عنه أجورهم العالية التى تفوق أجرى كمبتدئ بالإذاعة.

أذهلنى أن المخرج يقبل الممثلات بلا حرج كما لو كان يمارس حقًا من حقوقه المشروعة، وأنهن يبادلنه القبلات عن نفاق، ربما يستر النفور أو الكراهية عند بعضهم، أو التسليم للأمر الواقع خضوعًا للقمة العيش عند بعضهم الآخر.

لم أنبهر بكثرة إطراء الممثلين والممثلات على عملى الدرامى؛ لأننى أدركت منذ البداية أن المسألة كلها تمثيل فى تمثيل، وكيف لا يكون الأمر كذلك والحقيقة تقول: إن الجميع هنا مشتركون فى تقديم تمثيلية؟! قالوا لى:

– منذ عشرين سنة لم أمثل دورًا بهذه العظمة يا أستاذ.

– يا أستاذ حوارك ناطق حى يكاد يستغنى عمن يقوم بتمثيله.. إنه نفسه يمثل!

– بلا مجاملة يا أستاذ. رغم حداثة عهدك بالكتابة الإذاعية فإنك تفوقت بجدارة على كتاب الإذاعة المحترفين.

وببساطة شديدة قالت لى إحداهن بعد أن جلست ملاصقة لى على مقعد من مقاعد الاستراحة:

– تعال جانبى يا عسل. كلامك حلو. تستاهل عليه بوسه!

ذهلت لرفع الكلفة بيننا دون تمهيد مسبق فأنا لا أعرف حتى اسمها الحقيقى، وإنما أعرف أنها سلوى فى تمثيليتى والسلام، مثلما أعرف أسماء الممثلين الآخرين بأسماء الشخصيات التى يؤدونها فحسب، ذلك أنه لم يكن لدى مبرر كى أزحم ذاكرتى باسمين لكل شخصية.

دون مناسبة همس المخرج فى أذنى قائلاً بحنكة:

– لا تصدق الممثلين، فهم يقولون الكلام نفسه لكل مؤلف.

لكن ملاحظته لم تهز ثقتى فيما أكتب واعتزازى به مثقال ذرة.

لفتت نظرى سيدة عجوز تجلس بجوار فتاة صغيرة فى ركن بعيد من أركان الاستراحة، كان عليها أن تنتظر عدة ساعات حتى يجىء دورها فى تسجيل الحلقات، ظننت أنها اصطحبت ابنتها أو حفيدتها معها لمجرد المؤانسة، نسيت أن هناك دورًا لطفلة، وأننى مؤلف هذا الدور وحكايته.

يتجمع الممثلون والممثلات الذين لا دور لهم فى إحدى الحلقات فى قاعة الاستراحة، يتحدثون عن خزانة الإذاعة الخاوية، وعن

اضطرارهم إلى الحضور عدة مرات لتسلُّم أجورهم والعودة بخفى حنين، يلعنون ظاهرة المركزية القاهرية فى كل شىء، يتبادلون النكات السياسية والجنسية الفاضحة بغير خجل من وجود سيدة أو فتاة، معظمهم يدخن بشراهة غير عادية، يلقون بأعقاب السجائر على الأرض بلامبالاة.

انتابنى حزن شديد حين لا حظت أن الممثلين يلقون بأوراقى على أرض الاستوديو بمجرد الانتهاء من تمثيلها، فيكنسها الساعى بمقشته مع أعقاب السجائر والأتربة وسائر النفايات، كل شىء يحدث هنا ببساطة وتلقائية.. النص الأصلى يُرسل إلى إدارة العقود حتى يمكن اعتماد الأجر بناء على عدد الساعات المذاعة؛ ليتحول فى النهاية إلى مستند رسمى بإدارة الميزانية أيًّا كان الفكر الذى يحويه هذا النص. النص المصور لا يعنى الممثل فى شىء بعد أدائه، فلماذا يحتفظ به وهو يستعد لأداء دور آخر فى نص آخر فى اليوم التالى أو ربما فى اليوم نفسه؟!، الإذاعة تبث النص فى الهواء للمستمعين فيستمعون إليه ثم ينسونه بعد قليل، حتى إذا أراد أحدهم أن يعود بذاكرته إلى مسمع معين لم يستطع، ما لم يكن قد سجل النص بمعرفته، قال لى المخرج:

– إذاعة النص عندنا تعادل نشر الكتاب عندك، فلا تبتئسْ!

- إذن فهو نشر فى الهواء.

- كل شىء فى هذه الدنيا فى الهواء.

لم يكن يقصد أن يكون حكيمًا حين قال عبارته الأخيرة، ولكنى تعمدت أن أجد فيها حكمة فوجدت، حكايات معدودة وصلتنى من قراء متباعدين حول كتبى، ولكن مكالمات تليفونية لا حصر لها انهالت علىّ بعد بدء إذاعة تمثيليتى المسلسلة، الناس تسمع إذن، وتهتم وتناقش أكثر مما تقرأ وتتأمل وتفكر، لا مفر من التسليم بالأمر الواقع هذا، ثم إن العائد المادى من الكتب بسيط للغاية، ولا يتكافأ أبدًا مع الجهد المبذول فى كتابتها، ولا مع المراجع التى لا بد من الاطلاع عليها قبل الكتابة، ولا مع السجائر والدخان، وانحناء الظهر وآلام الرقبة، والتهاب أعصاب الأصابع والإرهاق الذهنى والتوتر العصبى والتذبذب الوجدانى وتقلب المزاج مائة مرة خلال فترة إنجاز رواية واحدة قد تدوم كتابتها عامين أو ثلاثة أعوام.

ما زالت التمثيلية مستمرة، النص وأنا والمخرج والممثلون مشتركون فى التمثيلية، ومعنا مؤثرات موسيقية وصوتية متنوعة، وتقترب منى السيدة العجوز على استحياء.

- يا أستاذ، منذ ساعات ثلاث أنتظر مع ابنتى.

- معذرة، ماذا أستطيع أن أقدمه لك من عون؟

- دورى ينحصر فى حلقتين، ودور ابنتى فى حلقة واحدة.
- وماذا يعنى هذا؟
- يعنى أن أجرنا سوف يكون هزيلاً.
- وكيف تحل هذه المشكلة؟
- تطيل من دورى ودورها، أكرمك الله!
- ...
- إننى فى احتياج شديد، لا أراك الله كربًا!
- حاضر.

لم أدر كيف وافقتها بسرعة على مطلبها، ولا كيف سأتصرف مع النص أو المخرج وفاءً لوعدى لها، انتحيتُ بالمخرج جانبًا، وقررت إتقان تمثيلية أخرى أؤديها أمامه لأقنعه بما نويت عليه من تغييرات فى بعض الحلقات بالحذف والإضافة.. ولم أدر أيضًا: هل أتقن المخرج التمثيل حين وافقنى، أم أنه صدقنى بالفعل معتقدًا أن ما قلته حقيقة لا تمثيلية!!.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة أخبار اليوم ٢٠/١٢/٢٠٠٣

النـــــــادى

– إذا أردت أن تعمل شيئًا صحيحًا فدع غيرك يعمله لك!

تماسكت بصعوبة حتى لا أنفجر فى الضحك وأنا أتبادل النظر مع الجالسين لدى استماعنا إلى نصيحته الخطرة.. المهم أنه يقولها بجدية شديدة ونبرات هامسة كمن يخشى على سره المقدس من الذيوع.

عرفته ضمن شلة النادى الدائمة التغير بالنقصان والزيادة، تبعًا لانسحاب بعضهم وقدوم بعضهم الآخر، فالتجانس الدائم بين مجموعة متكاملة من الرجال والنساء يكاد يكون مستحيلاً بحكم التجربة، وقلما تجد مكانًا مثل النادى يحفل بمثل هذا الخليط المتناقض من المستويات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ابتداء من رئيس النادى رجل الأعمال الشهير حسن تامر، وانتهاء بالمهندس الزراعى صفوت حمودة صاحب النصيحة الخطرة والدخل المحدود.

فى الماضى كان النادى يمثل فئة اجتماعية متجانسة على نحو ما، ولكن تنافس رؤساء النادى على جلب الأصوات دفع إلى إعطاء العضوية لشركات كاملة جاءت إلى النادى بنوعيات من البشر لا حصر لتباينها الثقافى والاجتماعى.

فى بداية الأمر كان قدومه إلى الشلة متقطعًا لارتباطه بقدرته على التزويغ من عمله حسبما تسمح الظروف، وكنت أستاء لأمر رجل تجاوز الأربعين يرتضى لنفسه مثل هذا الموقف المهين من مهنته ووظيفته واحترامه لنفسه، ولكنى لم أسمح لهذه الملاحظة أن تنتقص كثيرًا من قدره فى نظرى، فربما كان ذا حسنات أخرى لم تشأ الظروف أن أكتشفها فيه، وعلى أية حال فضريبة الفراغ فادحة ولا مهرب من سدادها بالمزيد من الصبر والقدرة على تجاوز الصغائر من الأمور.. بعد ذلك أصبح تزويغه من العمل رتابة يومية يتباهى به، وكنا نفاجأ- نحن شلة المعاشات- بوجوده بيننا ابتداء من الساعة العاشرة من صباح كل يوم.

أراه منهمكًا فى حديث هامس مع أحدهم، وحين يلفت نظرى ذلك أتبين أن موضوع الحديث تافه للغاية، حتى إنه لا يستحق ما تهدر حوله من كلمات، هذا ويتميز صاحبنا بابتسامة دائمة مصنوعة- لا تفارق شفتيه، تذكرنى بابتسامة رئيس الوزراء الخائبة، كما أنه حين يتحدث إلى أحد فإن عينيه تتحركان دائريًّا

لاستطلاع تأثير كلماته على الآخرين، وكأنما يتسول التأييد المتواصل لما يهرف به.

ولقد بلغت بى الدهشة مداها أثناء انتخاب رئيس وأعضاء مجلس إدارة النادى؛ حيث ترك الرجال والنساء شئون حياتهم كافة، وتفرغوا للثرثرة حول هذا الشأن الغريب.. رأيت صفوت يؤيد رئيس النادى مع مجموعة من الرواد، ذاكرًا حسناته وأفضاله على النادى باقتناع شديد، ثم يعارضه ويذم فى خلقه مع مجموعة أخرى بدرجة الاقتناع نفسه، حتى إننى لم أستطع تبين رأيه الحقيقى فى ذلك الرجل.. والأدهى أن إقامته اليومية طالت بالنادى فى تلك الفترة حتى بلغت اليوم بأكمله منذ بداية النهار حتى إغلاق أبواب النادى.

كان إحساسه بنفسه طاغيًا كأنه يقوم بدور فى الحياة خطر ربما يتوقف عليه مصير البشرية بأسرها.

لاحظ صاحبنا انصرافى عنه وعزوفى عن الاستماع إلى حديثه، فبذل جهدًا كبيرًا لاستمالتى دون جدوى، فأنا لا أتمتع بقسط وافر من الصبر يتيح لى معاشرة مثل هذا النوع من البشر ولو للحظات قليلة، خاصة حين يعتقد بعضهم أنه العارف الأوحد بالحقيقة المطلقة.

لم ييأس وإنما انتهز فرصة جلوسى وحيدًا، فدعا نفسه إلى مائدتى وراح يمتدحنى بغباء شديد.. وفى النهاية اقترب من أذنى هامسًا كعادته:

- أريد أن أبوح إليك بسر قد لا أستطيع البوح به لغيرك.

- لماذا؟

- لأنك تجيد الصمت والاستماع.

- وبماذا يفيدك البوح؟

- قد أستنير برأيك.

فوجئت به يروى لى تفاصيل مقززة عن صميم علاقته الحميمية بزوجته، على الفور تذكرت حديث زوجته عنه فى محفل يجمع بين رجال وسيدات من أصدقاء الطرفين، كان مجمل حديثها عنه يشير إلى أنه رجل خائب بجميع المقاييس فى شتى النواحى، وساعتها لم أشعر تجاه هذه السيدة بأدنى حظ من الاحترام .

دون أن يدرى تشعب منه الحديث معبرًا عن سخطه على رئيس النادى، وعلى الساعى الذى يمسح المقاعد، والنادل الذى يقدم الطلبات، وأعضاء النادى الذين لا يتحدثون إلا بالنميمة، ثم تمادى

بطرح وجهة نظر – يعتقد أنها سياسية – فى مشكلة فلسطين يرى فيها الحل الأمثل لكارثة عجز الجميع عن إيجاد مخرج منها يرضى جميع الأطراف، فاجأته بقولى له فى نهاية حديثة الأشبه بغثاء السيل:

– طلقها!

تراجع قليلاً إلى الوراء إذ شعر بتورطه، حاول أن يتكلم فلم يستطع وكأنه ابتلع لسانه.. طرقت بعنف متعمد على كيانه:

– طلقها يا أخى مادامت هكذا.

قال لمجرد القول، مترددًا وبلا اقتناع:

– لقد فكرت فى ذلك ولكنى وجدت بها بعض الميزات.

– أنت حر.

– طبعًا أنا أقدس الحرية، ولكن أرجوك ألا يعلم أحد ما قلته لك عنها.

كنت على وشك القيام لولا أن حضر عضو آخر، رسالته فى الحياة تنحصر فى الإقامة شبه الدائمة بالنادى متجولاً بين الموائد بعيون متلصصة وخطوات أشبه بقفزات الغراب، متحدثًا بفخر عن

مولده بمطوبس «التى أنجبت العديد من عظماء مصر»، وعن أصالة عرقه ونسبه، وعن أقاربه وأصهاره الذين يشغلون أرقى المناصب فى الدولة.

اسمه عبد الوهاب، وهو كثير الحمد فى سجايا من يجود عليه بكوب شاى أو فنجان من القهوة، رغم أنه كان يشغل منصبا محترما بأحد البنوك.. أما الطلب الوحيد الذى يتجاسر عليه أمام النادل فهو كوب المياه. ودائمًا ما كنت أسائل نفسى: متى يجلس هذا الرجل مع زوجته وأولاده وحفدته فى المنزل؟!

يا إلهى!. لم أستطع تحمل صفوت، فكيف بصفوت وعبد الوهاب معا، وأنا الذى أتيت إلى هنا لأريح دماغى من أعباء الحياة، غير آمل فى رفقة صديق أستطيع الائتناس بصحبته فى هذا النادى الكبير.

حاولت التخلص منهما بحثِّهما على الذهاب لمتابعة الندوة الثقافية المنعقدة بالبهو الرئيسى، فتعلل أحدهما بثقل ظل الضيف– وكان مثقفًا كبيرًا أمقته– أما الآخر فقال بهدوء:

– إن الصالة تكاد تكون فارغة من الرواد.

– لماذا؟

– لأن الضيف ليس نجمًا سينمائيًّا أو راقصة شهيرة.

ولم يكتف بذلك وإنما راح ينتقد ضحالة الأعضاء وخواءهم الفكرى لانصرافهم عن الجوهر إلى المظهر، وانسياقهم وراء شهوة مشاهدة المشاهير، حتى أن النادى يكتظ بهم عند قدوم يسرا أو نور الشريف، بحيث لا يكون هناك متسع لقدم بين أرجائه الفسيحة.

مرت أمامنا «وداد» –صديقة العمل القديمة– وبصحبتها سيدة أخرى تفوقها جمالاً، انتهزت الفرصة بدعوتهما إلى الجلوس معنا، آملاً التخفيف عن كاهلى من حدة الشعور بالتقزز، عرفتها بالعضوين وعرفتنا بشقيقتها، سألتنى أول ما جلست عن آخر نكته فغمزت لها بعينى مشيرًا إلى ضرورة انتظار رحيل الضيفين الثقيلين، تحدث عبد الوهاب عن مطوبس وعن أقاربه، وأبدى صفوت وجهة نظر فلسفية فى حياتنا المعاصرة حين قال:

– كل حاجة صح فى مكانها الغلط!

وراح يجول بعينيه فى وجوه الحاضرين باحثًا عن الاهتمام والمشاركة والتأييد دون جدوى، فوداد وشقيقتها سامية لم تعبآ بوجوده على الإطلاق، وكان حديثهما منصبًا معى على «حسام»

زوج سامية الذى كان زميلى فى الجامعة، وحين تعمدت وداد توجيه الحديث إلىّ منفردًا، شعر صفوت وعبد الوهاب بالحرج، لكنهما لم ينصرفا؛ فجأة قامت وداد قائلة:

– إن حسام ينتظرنا الآن فى «الكوفى شوب» وهو فى اشتياق شديد لرؤياك.

تعمدت أن أترك صفوت وعبد الوهاب أمام النادى، يتصارعان فى الظاهر على دفع ثمن المشروبات، وفى الباطن على التهرب من الدفع، لم يكن حسام بانتظار أحد، وإنما دفعتهما الرغبة فى إنقاذى من الضيفين إلى هذه الحيلة النسائية البارعة .

فى البداية انطلقت النكات والضحكات، وفى النهاية سالت دموع سامية التى أراها لأول مرة، وهى تروى لى عن قسوة زوجها الذى يضربها ويسرق مالها ويعرف الكثير من النساء عليها..، فى تلك اللحظات الحزينة بعينها كان سمعى منقادًا إلى حوار من نوع آخر يدور على المائدة المجاورة بين شاب وفتاة يضع كل منهما أمامه «موبايل»:

– ولكن لكل حب نهايته المعروفة.

– إياك أن تتكلمى عن الزواج فهذا أمر مستحيل .

– فبماذا نسمى علاقتنا إذن؟

– سميها علاقة عصرية.

فوجئت بعبد الوهاب قادمًا بخطواته المتعرجة يقتحم علينا المائدة من جديد مخاطبًا السيدتين:

– أستسمحكما فى دقيقة.

وأشار إلى بالقدوم إليه بعيدًا عن المائدة قائلاً فى غضب مكتوم:

– كيف تتركنى وحدى مع هذا البنى آدم الممل؟

أيقنت أنه هو الذى اضطر إلى دفع الحساب، ولكنى سألته:

– فيم كان حديثه الممل معك؟

– لقد تحدث عن أمور شخصية بحتة تخص زوجته، وأوصانى ألا أبوح بالسر لأحد.

– ياه .. وماذا قال لك عنها؟

بسرعة البرق أفصح لى عن التفاصيل نفسها التى سمعتها من صفوت، ولم أعلق حتى لا أسمح له بالبقاء طويلاً معى.. بعد انصرافه عدت إلى وداد وسامية قائلاً:

- يبدو أن كلام صفوت صحيح مائلة بالمائة، وأنه حكيم زمانه.

- كيف؟

- إن كل حاجة صح فى مكانها الغلط!

* * *

نشرت فى جريدة أخبار اليوم ١٦/٧/٢٠٠٣

المعـاش

ما زلت حتى هذه اللحظة غير قادر على الإطلاق أن أتصور أننى سأبلغ الستين من العمر بعد أيام قلائل.. ياه!! كيف انسرقت تلك السنون دون أن أدرى؟ وكيف أستطيع أن أشعر ببلوغى هذه السن وأنا ما زلت أرى نفسى شابًا فى بعض الأحيان وطفلاً فى معظم الأحيان.. إننى لست أعتبر نفسى هكذا فحسب، بل إن كل تصرفاتى تؤكد تلقائيًّا ذلك دونما أدنى افتعال .. فأنا ما زلت أنتج وأبدع، وأعمل وأحب، وأسهر، وأكتسب صداقات جديدة، وأبدأ فى مشروعات طويلة الأجل.

إننى أغنى وأرقص وأبتهج لسماع الموسيقى وقصائد الشعر ورؤية الزهور، وأهيم حبًّا فى جمال الطبيعة حين سكونها وحين ثورتها.. لا شىء يوقفنى عن الإقدام على الانصهار فى أتون الحياة، والتعامل مع ألاعيبها، والصبر على شدائدها ،والضحك منها حتى البكاء.

أتساءل أحيانًا هل من المحتم أن أنضم إلى شلة المعاشات بالنادى الذين يسمونهم تأدبًا بمجموعة الرواد؛ ليكون مقررًا علىّ أن أستمع إلى أمجاد كل متحدث وذكرياته المنصرمة عن نجاحه فى العمل ومهارته فى الإدارة، ورفضه تقاضى رشوة كبيرة كانت كفيلة بتغيير مجرى حياته، وانتصاره على خصومه فى صراعات عاتية تعرض لها.. لا أحد يتحدث أبدًا عن فشله فى عمل ما، أو عن عجزه فى تحقيق هدف ما.. الكل منتصرون على الزمن! .. فهل من الطبيعى بحكم الاندماج فى المجموعة أن أضطر أنا الآخر إلى سرد المصاعب التى واجهتنى، وكيف تغلبت عليها بحنكتى وذكائى وقدراتى الخاصة التى ينبغى أن أؤكد أنها قدرات غير عادية حتى أجذب التفات الجميع واهتمامهم بما أقول؟!

... رحت أسترجع فى خاطرى تجارب العديد ممن سبقونى إلى هذه الدرجة من سلم العمر المتصاعد المتهابط، حتى أستوضح لنفسى –بالمقارنة – موقفى تجاه نفسى أمام هذه القضية المهمة.

❊ ❊ ❊

• فى اليوم الأول من عامه الحادى والستين عبر «عبد الهادى» –كناس المصنع– بوابة الدخول حاملاً مقشته وغلقه، استوقفوه بلباقة وهو لا يفهم سببًا لما يحدث، قيل له:

- لقد أحلت إلى المعاش منذ الأمس.
- أعرف ذلك.
- إذن لماذا جئت اليوم؟
- جئت لأكنس المصنع ككل يوم.
- ولكنك لن تتقاضى أجرًا عن ذلك.
- ومن قال: إننى أريد أجرًا؟

أصابهم الارتباك فتركوه يكنس المصنع، ثم يغادره فى موعد الانصراف العادى.. بعد عدة أيام نقل رئيس الأمن من موقعه واستبدل به رئيس آخر يتمتع بغباء العقل وخلو القلب من الرحمة. أصدر فرمانًا خطرًا بمنع عبد الهادى من دخول المصنع، جاء عبد الهادى فى الصباح فمنعوه من الدخول، احتضن مقشته وظل جالسًا أمام بوابة الشركة حتى انصرف العمال والموظفون، فانصرف معهم إلى بيته.

تكرر الحال لخمسة أيام متتالية، وفى اليوم السادس وجدوه ميتًا أمام البوابة والمقشة بين يديه.

❊ ❊ ❊

• دق التليفون بمنزلى، كان المتحدث موظفًا كبيرًا بمؤسسة يعلم أننى صديق لرئيسها ..

– أهلاً يا ممدوح كيف حال الشغل؟

– سوف أتركه بعد عدة أيام.

– لماذا؟

– المعاش.

– أهنئك على قرب تمتعك بالراحة والحرية.

فى البداية قال: إن رئيس المؤسسة يحتال عليه بكل السبل حتى يقبل أن يجدد له العمل عامًا آخر، ولكنه يصر على الرفض، لم يكن هناك مبرر لأشك فى صدقه، ولما سألته عن السبب كانت إجابته غير مفهومة أو غير واضحة، ولكنى فوجئت به يشيد إشادة بالغة برئيس المؤسسة: «الوطنى الهمام الذى لا يهتم إلا بمصلحة بلده، والذى هو نظيف القلب واليد ولا يعرف الوساطة أو الرشوة أو التربح من الوظيفة بأى شكل من الأشكال» .. ولهذا فإنه يتمنى أن يصيغ هذه المشاعر فى قالب لغوى جميل فى بريد الأهرام عرفانًا بجميل هذا الرجل وتقديرًا لكفاءته ووطنيته.

قلت له ببساطة:

- جميل .. فلتكتب وتنشر ما تريد.

- ولكنى لست فى مهارتك الأدبية.

- تريدنى أن أكتبها لك؟!

- أرجوك..

وتشاء المصادفة أن ألتقى برئيس المؤسسة فى أحد المحافل، وأن أروى له ما دار بينى وبين ممدوح من حديث طيب عنه؛ فوجئت بالرجل يشيح بيده فى قرف:

- هف!.. إنه بنى آدم غير معقول.

- كيف؟

- يريدنى أن أجدد له ويلحّ فى طلبه، وأنا ما صدقت أن خلصت منه.

❊ ❊ ❊

• نجح المهندس «شريف» فى خداع الجميع؛ خاصة بعد أن اختتم عامه التاسع والخمسين بزيارة البيت الحرام وقبر الرسول. الكل تحدث عن أمانته ونزاهته وكنت– أوربما كنت – الوحيد الذى لم يقتنع بذلك، كان هناك إحساس خفى بداخلى يؤكد

لى أنه رجل منافق يتمتع بنعومة غير عادية تتيح له النفاذ من خرم إبرة؛ بغية تحقيق مصلحة له ولو على حساب الآخرين.

كان رئيسنا الأكبر لصًّا كبيرًا يتمتع بفجر شديد فى انحرافه وتسخير سلطته فى خدمة جيبه، وكان شريف على خلاف دائم معه بحكم اقتراب المنصبين من بعضهما هيكليًّا، اعتقد الجميع أنه خلاف الصالح مع الطالح، أما أنا فكنت أعتقد أنه خلاف الحرامى مع المحتسب على توزيع النهيبة.

ولما اقترب العام الستون من نهايته فوجئ الجميع بتودد شريف إلى الرئيس بشكل فج، مما أثار حفيظتهم، وكنت على ثقة من أن الثعلب الكبير يتلذذ بهذا النفاق؛ إذ أنه يعرف سببه معرفة يقينية.

فى حفل الوداع جلس شريف بجوار الرئيس وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة المنتصر، لولا أن قال الرئيس فى نهاية كلمته: إنه كان يود أن يجدد خدمة شريف، لكن اللوائح تمنعه من ذلك. حينئذ غابت الابتسامة واكتسى وجه شريف بلون لا هو أزرق ولا هو أصفر، وبعد أن انصرف الرئيس لعنه شريف على الملأ، وتمنى موته دون المشى فى جنازته.

❊ ❊ ❊

• بلغ الأستاذ «موريس» مدير الإدارة الستين إلا قليلاً، وكانت درجة المدير العام شاغرة ومن المفترض أن يرقى عليها، لكن رئيس الهيئة أصر على الرفض محتفظًا لنفسه بأسبابه، والحق إن موريس لم يكن جديرًا حتى بمنصب مدير الإدارة لافتقاده الكفاءة الفنية والإدارية معًا، لكنه كان يفضل الموت على إحالته للتقاعد قبل أن يشغل منصب المدير العام ولو ليوم واحد، وكان هذا الأمر يدهشنى كثيرًا؛ خاصة أنه لن يعود عليه بنفع مادى على الإطلاق.

تعود موريس أن يحضر إلى مكتبى بين الحين والآخر ليفضفض لى عن مشاعره وآلامه، ولما وصل بنا الحديث إلى قضية الساعة سألته على سبيل تخفيف الحمل عن كاهله:

– ما الذى يضيرك يا أخى لو أحلت إلى التقاعد على درجة مدير إدارة؟

– أنت لا تفهم شيئًا لأنك ما زلت صغيرًا.

كان يعاملنى كأخ أصغر، وكنت أحب فيه طيبته الفطرية، قلت له باسمًا:

– دعنى أفهم منك.

– حين أجلس مع أصدقائى بعد المعاش وأقول: إننى مدير عام سابق، فإنها تختلف كثيرًا عن الأخرى.

– أعتقد أن كلمة «سابق» تجب المدير والمدير العام معًا.

– ألم أقل لك إنك ما: زلت صغيرًا!

أما الأمر الذى أثار تأملى فهو ما علمته فيما بعد عن موريس، إنه يمتلك العديد من الأطيان والعقارات والنقود السائلة فى البنوك.

❊ ❊ ❊

• كان شهر العمل الأخير «لأسامة السبكى» مدير الشئون القانونية، وكان رصيده من الإجازات السنوية المتراكمة يقارب تسعة أشهر، توقعنا جميعًا أن يأخذ هذا الشهر إجازة متصلة، ولكنه أصر على مداومة الحضور كل يوم فى الموعد الرسمى، أدهشنى ذلك فسألته:

– لماذا لا تأخذ هذا الشهر إجازة؟

– لا بد لى من الحضور حتى أسلم زميلى كل الملفات المتعلقة بالإدارة .

– ولكنك لن تسلمه مفاعلاً ذريًّا.

مط شفتيه علامة الامتعاض من حديثى، وفوجئنا بعد ذلك بسيل من الجزاءات يوقعها أسامة على موظفيه لأتفه الأسباب، تضاعف حماسه للعمل بشكل مثير وكثرت أخطاؤه وتضرر منه الرؤساء والمرؤوسين فعاودت نصحه بالإجازة ولكنه كان أكثر تشبثًا بالتواجد فى العمل.

قبل انتهاء خدمته بيوم واحد صدر أمر إدارى بتكليف مجموعة من المسئولين بالقيام بعمل ما، وكان اسمه ضمن القائمة من باب التكريم فقط؛ لأنه لن يشارك فى هذا العمل.. ثار ثورة عارمة لأن اسمه جاء فى الأمر تاليًا لاسم موظف آخر أحدث منه، وطالب رئيس العمل بإعادة صياغة الكشف وطباعته من جديد مع مراعاة أقدميته!

حاول الرئيس إقناعه بلا جدوى ما يريد، ولكنه امتثل لطلبه فى النهاية حين رأى زبدًا كثيفًا يتناثر من فمه أثناء ثورته..

ولحظة مغادرته الشركة كان بكاؤه أشبه بعويل النساء عند موت عزيز.

❊ ❊ ❊

إنى أتعجب لأمر هؤلاء الناس حينًا وأتعجب لأمرى حينًا آخر؛ ذلك لأننى أشعر بسعادة غامرة وفرحة طفولية طاغية بقرب إحالتى إلى التقاعد، أشعر أننى كمن يولد من جديد. أتأهب لاستنشاق نسمات الحرية بالتخلص من عبودية الوظيفة وأسرها الكريه. الاستيقاظ كل يوم- لمدة أربعين عامًا- فى الموعد نفسه كان شيئًا قاتلاً سأتحرر منه. الذهاب إلى العمل مع نفس الوجوه نفسها بحسناتها وسيئاتها سأنجو منه .. أليس هذا شيئًا رائعًا؟! .. أن أفلت من رؤية الرؤساء والمرؤوسين أنفسهم كل يوم وأن أؤدى واجباتى الوظيفية نفسها كل يوم وأرى الشوارع نفسها والمبانى والمنشآت نفسها التى لا تموت أبدًا كما يموت البشر كل يوم!!

قيل لى: إننى سوف أكون سعيدًا فى البداية، ولكن بعد مرور عدة أشهر من الفراغ لن أجد ما أعمله وسوف يصيبنى الاكتئاب والكدر.. ولكن، من قال: إننى سأتوقف عن العمل والإبداع والرقص والعبادة والغناء والسياحة.. ابتهاجًا بالحرية؟!

وجاء اليوم الأخير..

لم أعبأ بكونه يوم ميلادى الذى أحتفل به كل عام، إنما غمرنى حزن شديد؛ لأننى فى هذا اليوم سأغادر هذا المكان وسأترك هؤلاء الناس وأفارقهم إلى الأبد.. آخر راتب شهرى.. آخر توقيع على

آخر مستند.. آخر لجنة فنية أحضرها.. إنه آخر عمل لى بالشركة.. آخر كل شىء اعتدت تكراره حتى خلته أبديًّا لا ينتهى!.

فى ذلك اليوم فاجأنى رئيس الشركة بقوله:

- نحن بحاجة إليك وسوف تستمر فى العمل معنا.

- كيف؟!

- سنتعاقد معك كمستشار فنى لمدة سنة قابلة للتجديد.

لم أعرف ماذا أقول له وقد أخذت بالمفاجأة التى دمرت كل ما أقمته من حصون أواجه بها لحظة انفصالى عن مهنتى التى ظللت أمارسها وأتعيش منها عمرًا طويلاً.. والحق أن سعادتى كانت بالغة بما سمعت.

❊ ❊ ❊

نشرت فى جريدة أخبار اليوم ٣/٥/٢٠٠٣

الانتفاضة والملل

استبد بالكون غيم ودب فى نفسى ملل كئيب، تعقبت فى دأب مصادره المحتملة فوجدتها متعددة متشعبة متشابكة يلفها ضباب كثيف، فكرت فى محاولة الانفراد بكل مصدر على حدة، أدرسه وأحلله لأصل إلى أسبابه، ثم أقرر كيفية القتال معه للقضاء عليه. كانت المحاولة قاسية، أشبه بمعركة، لم أتردد، أعددت أسلحتى، رصصتها فى مواقع حصينة، الإيمان، الصبر، المنهج العلمى فى التفكير، الثقافة الواسعة، النظرة المتفائلة للحياة والحذرة فى آن واحد. الأمل فى المستقبل. الاستفادة من تجارب الماضى وخبراته استشرافًا للمستقبل، وشحن العزيمة وشحذ الهمة.. وأخيرًا وقفت فى موقعى معتمدًا على الله.

أدرت قرص الهاتف طالبًا صديقى الحميم «سعيد»، لا أحد يفهمنى ويحسنى مثله، تصل درجة التقارب بيننا إلى التفاهم بالأعين دون كلام، همومه لا تختلف كثيرًا عن همومى فنحن أبناء جيل واحد ومهنة واحدة وهواية واحدة هى القراءة، سعيد يتميز

عنى بأنه لا يكتفى بالقراءة وإنما يبدع قصصًا وأشعارًا جميلة، سأقوم أنا بالمبادرة الأولى لفتح الحوار حتى نصل إلى نهايته المرجوة وهى الوقوف على أسباب مللى وملله كخطوة أولى.. من أدراك أنه يعانى الآن مما تعانى منه؟ أليس من الجائز أن يكون الآن فى أصفى حالاته النفسية؟».. استنكرت هذا الخاطر. اننى أتحدى مواطنًا عربيًّا معاصرًا من أصحاب الضمائر اليقظة إن يستطيع الاستمتاع بلحظة صفاء نفسى طويلة الأجل .

لكن ما الأمر المحدد الذى فجر القضية وجعلك تطلب صديقك؟.. ان الملل لا يأتى دفعة واحدة بل يتسرب فى دهاليز القلب بخبث شديد، فما الحدث الذى أشعل الفتيل فألهب مشاعرى وأحال مللى إلى غضب شديد؟!

عبر الهاتف أتانى صوت ناعم غريب: من يتكلم؟ أنا أعرف أن سعيدًا رجل أعزب، تزوج الكتب والموسيقى والقصص والأشعار زواجا شرعيًا. كما أعلم أنه رجل ملتزم بقيم دينه، لم تدخل بيته امرأة من غير أهله وأقاربه. ترى هل توصل سعيد إلى وسيلة جديدة لتدمير الملل الذى طالما اشتكى إلى منه؟ إذا كان قد تزوج فلا بد أنه قد جن.. لقد مضى يومان فقط على آخر لقاء جمع بيننا ولم يصرح أو يلمح بكلمة عن الزواج:

- من المتكلم؟

- أنا محمود.

- محمود من؟

اقترحت عليه- قديمًا- أن يكمل نصف دينه، لكنه رفض أن يجلب التعاسة لأسرة لن يعرف كيف ينتمى إليها، وإلى زوجاته الأربع فى آن واحد.

- معذرة يا سيدتى، من أنت؟

- أنت الذى طلبت فلا يجوز لك أن تسألنى من أنا.

- أليس هذا رقم ٩٦٢٨٦٨٠؟

- هو صحيح.

- إذن فأين سعيد؟

- سعيد من؟

مقالتك يابن إدريس هى السبب فى هذه الورطة، لولاها لما خطر ببالى الآن أن أتصل بسعيد، قرأتك تصرخ على صفحات «الأهرام» قائلاً: افصلونى -أرجوكم- معه .. ذلك الطالب الذى أراد أن يقيم معرضًا بمعهده يصور فيه مشاهد القمع الصهيونى الإجرامى

لأطفال الانتفاضة الفلسطينية الجبابرة.. وذلك العميد الذى ادعى الموافقة على إقامة المعرض ثم أبلغ جهاز المباحث ففصل الطالب من معهده.. ماذا أقول لها؟

– سعيد صاحب هذا الرقم.

كان صوتها عذبًا ونبراتها لينة وأسلوبها كريمًا .

– أى رقم؟

– ٠٩٦٢٨٦٨٠

– أمتأكد أنت من صحته؟

– تمامًا.

– إذن ففيم كنت تريد «سعيد»؟

– أعتقد أن هذا ليس من شأنك، خاصة أننى لم أعرف حتى الآن من تكونين.

بمجرد أن انتهيت من قراءة مقال يوسف إدريس الذى يطالب بفصله من عمله تضامنًا مع الطالب المخدوع، أيقنت أن لكل شىء حدوده، وأن الملل الكئيب الذى يعتصر نفسى لا بد أن يقتل، سوف أسأل صديقى عن رأيه فى هذا المقال وسوف يجيبنى، وسوف نتبادل

السخط والهم والكدر ونفتش فى نفسينا وننقب فى قلبينا، ونتفحص فى عقلينا كيف يمكن أن نفعل شيئًا يُسهم فى تغيير واقعنا الكريه.

– لو قلت لى فيم كنت تريد الحديث مع سعيد أقول لك من أنا.

– لا يهمنى أن أعرف من أنت. أين سعيد؟

– لو أصررت على موقفك سأضطر آسفة إلى وضع السماعة.

كانت لهجتها مزيجًا من المصرية والشامية، لاحظت على نفسى أننى مقدم على حالة من الانفراج غير منتظرة.. سألتها فى ود رقيق:

– هل أنت مصرية؟

– لا يهم، أنا عربية من أى وطن عربى، فيم كنت تنوى التحدث مع سعيد؟

استنامت أعصابى لرقتها، تعجبت لحالى والزمان لا يخلو من أعاجيب.. نسيت «سعيد»!

– ربما لا يعجبك موضوع الحديث أو لا يستهويك.

– ما هو؟

– مقالة يوسف إدريس.

– قرأتها.

– معقول؟!!

– ولم لا يكون معقولاً؟ أنتم أيها الرجال لا تحترمون عقلية المرأة العربية أبدًا.. لم هذا؟!

– أنا آسف، لم أكن أقصد أية إهانة.

– لقد قرأتها وشعرت بضيق شديد، وتمنيت أن أتحدث بشأنها مع أى مخلوق.

نسيت«سعيد» مرة ثانية، ونسيت أننى أعانى من الملل والغضب، تدفقت الدماء فى وجهى وشعرت بريقى يجف قليلاً..

– فلنتحدث.

– وهل تظن أن يثمر حديث تليفوني مقتضب عن شىء ذى قيمة؟

– بالقطع لا.

– إذن فما الحل؟

ها هى تطلب موعدًا للقاء، ما هذا الحظ الجميل يا ولد، أكرمك الله يا بن إدريس فمقالك وجه السعد. تشجع أيها الملول الغاضب.

– ليس أمامنا إلا أن نلتقى ما لم يكن لديك مانع.

– نلتقى.

ترى ماذا يفعل سعيد لو علم بما حدث؟ من تكون هذه السيدة عنده؟ لا بد أننى أخطأت فى الرقم. لو كانت قريبته فهذا ليس من شأنى، لم أجرب الرقم مرة ثانية، أنا لم أخرج معها عن حدود الأدب واللياقة.. هى التى عرضت وأنا قبلت.

– أين؟

– فى المكان الذى تحدده.

– أتناسبك قاعة فندق.....؟

– أوافق، أنه مكان أنيق ومحترم وقريب من مسكنى.

– أين تسكنين؟

– إلى الملتقى يا محمود.. كم الساعة الآن ؟

– السادسة.

– نلتقى فى السابعة بإذن الله.

وضعت سماعتها برفق، أما أنا فظللت ممسكًا بسماعتى عاجزًا عن إغلاق فمى وقد انفتح ذهولاً عن آخره.

نسيت أن أسألها عن اسمها.. لون الثوب الذى سترتديه، نسيت أن أصف لها معالم وجهى الأسمر المليء بالخطوط المتداخلة المتعرجة، لم أذكر لها أننى أضع نظارة سوداء على وجهى وحلة رمادية على جسدى النحيل.

ما هذا العبث يا من تجاوزت الأربعين؟ اعقل أيها الرجل، وعد إلى صوابك، وتجنب مغامرة صبيانية قد تحط من قدرك أمام نفسك وأمام الآخرين.

فى قاعة الفندق على مقعد قريب من المدخل، رأيت كثيرًا من الضيوف الأجانب والعرب يأكلون الحلوى ويشربون القهوة ويضحكون، شاهدت نزلاء الفندق من أثرياء المصريين وعلى وجوههم صرامة مصنوعة وفى ضحكاتهم عصبية واضحة، إنى أعشق التلقائية فى كل شيء. جلوسى فى هذا المكان يؤرقنى، أنا الذى اخترته تباهيًا وحذلقة أمام امرأة مجهولة، ادفع الثمن يا بطل من راتبك الذى يعانى من الأنيميا المزمنة منذ عصر محمد على، أم تريد الدنيا والآخرة فى لحظة واحدة؟

حَمْلَقْتُ فى وجوه الجالسين والواقفين، من المؤكد أن أحدًا منهم لا يفكر فى الانتفاضة أو فى يوسف إدريس أو فى الطالب المفصول عقابًا له على تضامنه مع الفلسطينيين.. فيم يفكرون إذن؟

ازداد موقفى حرجًا، كلما شاهدت فتاة أو سيدة تدخل الفندق وحدها أظنها هى، زاغ بصرى لسرعة تعاقب متابعتى القلقة للغاديات والرائحات، أى مأزق هذا الذى وضعت نفسى به. كلما نظرت إلى إحداهن مصطنعًا ابتسامة، «دون جوانية»، واثقة صفعتنى بنظرة لا تليق إلا بأبله. ماذا أفعل إذن؟ هل أجرب نظرية المحاولة والخطأ كما تعلمتها بالكلية؟. قد تؤدى بى العاقبة إلى قسم الشرطة أو إلى المستشفى الأميرى، لا مفر إذن من التراجع..

لكن.. من هذه الفتاة الرائعة الجمال التى تمر بثقة بين الموائد متفحصة وجوه الجالسين فى كبرياء؟. لا بد أنها هى!! نظرت إلى بإمعان ثم اختارت المائدة المجاورة لى تمامًا وجلست. استلهمت شجاعة الشباب المنصرمة وابتسمت لها فابتسمت. سألتها فى توجس:

– هل أنت ...؟!

لم أستطع اكمال الجملة، ابتسمت لترددى، وأجابت بعد أن استحالت ابتسامتها إلى ضحكة برئية مرحة:

– نعم أنا.

انتقلت على الفور إلى مائدتها وجلست، لم تعترض ولم تتخل عن ابتسامتها وإنما قالت فى دهشة:

– إنك لشديد الثقة بنفسك

كنت انتفض من داخلى وكانت ركبتاى ترتعشان.

– أفضل أن نتعارف أولاً قبل أن نبدأ الحوار.

طال الحديث بيننا دون أن نتعرض للمحادثة التليفونية، تناولنا موضوعات شتى عن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مجتمعنا العربى. كاد الحديث ينحرف بنا إلى متاهات أخرى لا أجيد الخوض فى أسرارها رغم شدة ولعى بها فأنا إنسان خجول، أما الحديث عن المقال فلم يبدأ، فجأة نظرت إلى ساعتها واعتذرت عن ضرورة انصرافها على الفور، حين بقيت شاردًا لا أعى بحدود زمان أو مكان.

تملك منى الهلع حين تذكرت أنى نسيت أن أسألها عن سعيد، قررت أن أخاطبها هاتفيًّا بمجرد عودتى إلى المنزل، أدرت الرقم نفسه، جاءنى صوت سعيد مرحبًا باتصالى به ارتج على القول فلم أدر ماذا أقول له، لم يخطر ببالى أن أسأله عن المقال، انهيت المكالمة

بأسلوب مرتبك أثار دهشته، رحت أحاول استبدال الأرقام السبعة الواحد وراء الآخر. جربت جميع التباديل والتوافيق ولم أسمع فى كل مرة إلا جملة واحدة فأجيب «آسف».. وأغلق السماعة. اتصلت مرة أخرى بسعيد وقد بدأ العرق يتصبب على جبينى، كانت مشاعرى تختلف تمامًا عن مشاعر الملول والغاضب، سألته بأنفاس لاهثة:

– أين كنت منذ ساعة؟

– كنت بمنزلى.. لماذا؟

– هل كان أحد معك؟

– كنت وحدى .. ما هذه الأسئلة الغريبة؟

– متأكد؟

– ما الذى جرى لك ياب نى؟

– سأشرح لك كل شىء فيما بعد، ولكن قل لى: هل قرأت مقال يوسف إدريس؟

– لا.

* * *

نشرت فى مجلة اليوم السابع يوليو ١٩٨٩

الألـــــم

-١-

حبيبتى الغالية..

تسألينني ببساطة «ما المشكلة»؟!

وكأنك لا تدركين كم أتعذب وأحترق من أجلك.. وكأن الله قد سلطك علىّ ليطهرنى من كل ما ارتكبت فى حياتى من ذنوب وآثام بأن وضع قلبى الهش بين يديك الرقيقتين تتبادلان اللعب به، وقلبى يا حبيبتى ليس دمية من ورق.. فتلك اللطيفة الربانية الغارقة فى السر الإلهى لم تخلق للعب والعبث، وإنما خلقت لتمتلئ بنور الله وتحيا على حبه.

وأنا ياحبيبتى إنسان مبتل بالمعرفة والإنكار فى آن واحد، فإرادتى فى وادٍ يبعد عن معرفتى آلاف الأميال، وموقفى فى وادٍ يبعد عن إراتى بآلاف أخرى من الأميال..

وأنا ياحبيتى أحبك وأعرف أنك تحبيننى، ولكن المستحيل بشحمه ولحمه وشرره المتطاير من عينيه يقف حائلاً بيننا وفى قبضتيه الهائلتين يمسك برهائنه المساكين: زوجتى وزوجك وأبنائى وأبنائك!!. وعلى جبينه العريض تصرخ رهينة أخرى أوقع بها فى أخاديده العميقة: رهينة الزمن الذى هرب منا دون أن ندرى فأضاع منا فرحة العمر فى نذالة لم أعرف لها نظيرا، تفوق نذالة المستحيل الذى يحتمى بصدارة العرف والتقاليد والموروثات كرهائن أخرى يقف من خلفها فى جبن، يهددنا بالفضيحة والعار والدمار.. يجعلنا نرتعد خوفًا كلما قبض بيديه العظميتين على عنق حبنا يخنقه بلا رحمة، يجعله يرفرف بين يديه والدماء تنزف من عينيه، وقلب العصفور ينتفض انتفاضة الموت!

آه يا حبيبتى لو ذقت لوعة الحب وألمه العظيم! آه لو فكرت طويلاً قبل أن تسألينى ما المشكلة! إنى لا أريد أن أصدق أذنى.. أو ربما كان حافزك إلى السؤال رغبة فى إثارتى ومداعبتى واستنفار كلماتى التى تحبين الاستماع إليها بكل ذرة من كيانك .. أكاد أوقن من ذلك حقًّا..

لا.. ليس قلبى دمية بين يديك لأنى أراه فى حضن قلبك.. ينبضان معًا وينثران زهور الحب على كل الأحياء.. لكن بالله دلينى كيف أنت كذلك؟.. كيف تنعمين بحبى والمستحيل ماثل أمامك

بكيانه المتعملق المخيف، كيف تتحايلين على القدر بهذا الجبروت المذهل الذى لست أعرف كيف أصفه؛ أرقة هو أم عناد؟ أثقة هو أم استسلام، أم قناعة بالمتاح الممكن الخداع فى ظهوره واختفائه ثم معاودة ظهوره من جديد؟.

إنك لا يبدو عليك سوى السعادة بحبك فى وجود المستحيل وتحت أزيز صوته وبين قرقعه رعوده، ثابته كالطور وكأنما وجود هذا المستحيل أمامك هو المستحيل نفسه.. يا إلهى؟! أمن الممكن أن يصل حبك لى إلى هذا الحد الأسطورى الذى لا يطيقه مخلوق بشرى؟ يا إلهى أبلغ بى الغرور والضعف حتى لا أدرك أننى لم أعرف كيف أحبك مثلما أحببتنى؛ وأنا الذى يتشدق بأنه من علمك الحب ومن دكّ قلاع عزلتك واقتحم قلبك وتربع على عرشه؟

- ٢ -

حبيبى المعذب.. أنت رجل مجنون بالحياة، ولقد بلغ بك الجنون أن جعلتنى أعشق جنونك؛ وأنا من يعرفنى الجميع بالوقار والتحفظ، لقد اكتسحت حياتى كشلال هادر يتدفق بالحب والجمال، انتشلتنى من حيث لا أدرى من حياة كئيبة ملولة باردة لتضعنى فى غفلة من الزمن بين أتون قلبك الملتهب، أصبحت أرى فى كل

ما مضى من عمرى ضبابًا ينقبض له صدرى؛ وأحلم فيما هو آت من أيامى بزهور وعطر ورياحين، وطيور ملونة ترفرف فى كون من الموسيقى الحالمة، لقد بلغ بك الجنون أن تتصور، وتجعلنى أتصور معك أن حفيدتى هى ابنتنا التى أنجبناها فى خيالك معًا .. صدقنى ياحبيبى إن لمسة يدك لى تحيل جسدى ذا الخمسين عامًا إلى جمرة ملتهبة ،ربما لا تعرفها فتاة العشرين... تقول لى: إن للحب قانونه الخاص وأصدقك. تفصل ما بينه وبين الدين بحلاله وحرامه من جهة وبين العرف والمواريث من جهة أخرى، وأقتنع بما تقول.. تقبلنى بشفتيك الحنونتين المجنونتين فينصهر عمرى بأكمله فى رضابهما المسكر... تغازلنى بكلمات يعجز السحر أن يأتى بمثلها وأستمع إليك بقلبى وأذنى وكل جوارحى، حتى أغرق فى بحر النشوة بغير أمل فى النجاة.. تتحكم بخيالك الواسع ومطالبك الصبيانية الرائعة؛ حتى فى ألوان ملابسى الداخلية، وأطيعك لعل ما يعطيه الخيال يعوضك عما يستحيل فى الواقع.

حبيبى إنى غير راغبة فى مقاومة حبك؛ بل انى أتوق إلى المزيد.. تقول إننى آخر عربة فى آخر قطار يقوم بآخر رحلة فى عمرك، وأقول إنك عمرى كله أراه قد بعث على يديك، فرأيت فيه ما لم أكن أحلم برؤتيه حتى آخر يوم فيه.. أنت الطريق الذى سوف يجتازه ذلك القطار من بدايته حتى نهايته، فبالله ماذا تريد منى أكثر

من ذلك؟! انكم يا معشر الرجال تتهموننا نحن النساء بالرومانسية المفرطة وأنتم غارقون فى الخيال، صدقنى يا حبيبى إن قناعتى بهذا الحد من حبنا لهى صمام الأمان لحياته، أستحلفك بحياتى ألا تطالبنى بالمزيد وإلا أطعتك وأعطيتك كل ما تطلب، طاعنة المستحيل بقوة فى قلبه، لكن حبنا حينئذ لن يدوم.. فهل تريد ذلك؟!

-٣-

محبوبتى الفاتنة.. تقولين إنك تجدين فىَّ الحبيب والشقيق والصديق.. ما أسعدنى يا رب بهذا العطاء، فأما عن الأخوة والصداقة فهذان كنزان لا ينفدان مدى العمر، وما أتعس من حرمته منهما الأيام.. وأما عن الحب فمفاتيح كنوزه –ويا أسفى– ليست بيدى وحدى، كما أنها ليست بيدك أنت الأخرى، إن المستحيل يضعها تحت قدميه ساخرًا منا، واثقًا أننا لن نجرؤ على سحبها من تحتهما.

كنوز حبنا يا عصفورتى أرض خصبة لو حرمت من الماء تشققت وبارت جذورها وتساقطت أوراقها وثمارها.. فدلونى يا مخلوقات الله من إنس وجان هل هناك حب بلا قرب، وهل هناك زرع ينمو بلا ماء.. يا أناشيد الرحمة ويا كلمات الوجد ويا حروف الموسيقى أليس الحرام نفسه حرمان حبيبين من لقاءات الوجد والأنس والمناجاة؟!

أليس الكفر بعينه هو السجود تحت أقدام المستحيل والخضوع لتهديداته الإجرامية القاسية؟!

لا يا حبيبتى، أنت تضنين علىَّ بالقرب وأنت تعلمين أننى قادر على الاختفاء بك بين ضلوعى وتحت أجفانى وفى حنايا قلبى.. ألا من يوم واحد تهربين فيه معى من هذا العالم الذى لا يطاق بخداعه وأكاذيبه وتصنعه وساديته وقبحه.. ألا من ساعات محدودة أريح فيها رأسى المصدوع على صدرك المعطاء، أحرام أن تتحسس أناملك الحبيبة شعر رأسى وتتأملينني فى صمت الحب السحرى؟!.. أستحلفك بابنتنا الحبيبة أن ترحمى ألمى يومًا، أطلقى لقلبك العنان ساعة أو ساعتين وامنحينى شفتيك وكلماتك وأناملك ونظراتك الحبيبة إلى عينى.. أم أنه لا يعنيك كثيرًا أن أتألم أكثر من ذلك؟!

- ٤ -

ها هى السماء تمطر.. والزهور تتفتح.. ويستحيل الكون إلى روضة من رياض الجنة تعبق بالعطر، وفيها تشدو الملائكة بأعذب الألحان.

❊ ❊ ❊

نشرت فى مجلة حواء ١١/١٢/١٩٩٣

الفـــــرح

لأول مرة منذ ولدت تجتاحنى فرحة كالسيل، تنشلنى من أعماق الزمن إلى عالم من النور والانشراح والبهجة، أشعر بالرغبة فى الطيران، أهيم فى حب كل الناس والحيوانات والحوائط والطيور والأنهار والحشرات والبحار والجبال والأشجار، البسمة تضىء وجهى وتسرى فى دمى، كل خلية من خلايا جسدى تضحك. كل نبضة فى القلب تسكب الضياء والمحبة للكون ومخلوقاته وخالقهم، أريد أن أخلع ملابسى وأجرى فى الشوارع حافيًا أصيح أيها الناس إننى فرحان.. لماذا لا تفرحون مثلى؟!

إن ما يحدث لى الآن يذهلنى، فهى ليست لحظة عابرة أو هاجسًا يدوم ساعة أو ساعتين، إنه شعور طاغ مستبد، أشك كثيرًا فى أنه لن يلبث أن يزول كما زال غيره من قبل، لست أدرى ولا يهمنى أن أعرف كيف أو لماذا جاءنى واجتاحنى بهذه القوة ودون سابق أسباب، حتى إننى استسلمت له بكامل إرادتى وبكل ما أختزن فى ضميرى من وعى.

واقترب موعد الجنازة..

قتل صديق عمرى برصاصة إرهابى تطارده الشرطة، أعددت نفسى لوداع حزين أفارق فيه فرحتى الطارئة لأغرق فى دموع الفراق النهائى وأسوح فى شجنى متأملاً غدر الحياة وعبثها، متفكرًا فى كونها دار فناء رغم ما تسخو به أحيانًا من اللذائذ والمتع والشهوات.

انتظرت فى صمت أن ينقبض قلبى ويكسو الشرود معالم وجهى، وينتفض جسدى برعشة الخوف والرهبة من مصيرى المحتوم، توقعت أن أنفجر فى البكاء حين أرى جسد رفيق عزيز محمولاً على الأكتاف، ساكت الحس والنطق والحركة، بعد أن كان يفيض حيوية وبهاء وحكمة.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل إننى كنت أبذل جهدًا رهيبًا؛ كى أقبض أسارير وجهى المنبسطة بين السائرين فى الجنازة. استبد بى الشعور بالفرح ولم يفارقنى لحظة واحدة، ،كأنه كائن مسحور يدغدغ أعصابى، ويهدهد مشاعرى، ويحيل ذهنى إلى شعلة من الصفاء البللورى المتألق.. لا ترى عيناى غير ورود، ولا تسمع أذناى غير موسيقى حالمة تنساب من بين أعطافى فى هدوء.

كنت أريد أن أحتوى النعش والمعزين فى صدرى، وأغمرهم بحنان الدنيا، وأربت على صدورهم، وأسألهم ألا يبتئسوا، وألا يحزنوا، فإن لم يفهمونى حذرتهم من الغفلة والجنون، فلماذا لا يفرحون؟!

صاح أحدهم:

- وحدووووووو....ه.

فردد الجمع:

- لا إله إلا الله .

أما أنا فكنت مشغولاً فى تلك اللحظة بشكر الله وحمده على ما أنا غارق فيه من فضله بتلك النفحة النورانية من السعادة والفرح، التى كان يبدو لى أنها منحة أبدية سوف تقودنى يومًا إلى الفناء فى ذاته الجليلة.

رغم هذا فقد كان سمعى منصبًّا على تعليقات السائرين وأحاديثهم فى الجنازة.

- مات شهيدًا.

- مات وخلاص.. صل على رسول الله.

- كان ماشيًا فى حاله لا به ولا عليه.

- الفاتحة على روحه، ربنا يستر على البلد.

ولكى أمنع نفسى من انفجار فرحتى المباغتة رحت أبحث عن مبرراتها المحتملة والمنافية فى اعتقادى لكل أسباب المنطق، ولم يكن يخطر ببالى أننى سوف أنجح فى العثور ولو على مبرر واحد لتلك الظاهرة العجيبة، لكنى تساءلت لماذا لا أفرح باقتراب ساعة النجاة من شرور هؤلاء الخبثاء ما دام الناس يضحون بحياتهم لتأمين حياة الغير وحمايتهم من المجرمين؟

لكنك فقدت صديق عمرك، لو كان لديك بقية من حياء لانفجرت صارخًا من الحزن والغضب والاشمئزاز والتقزز مما حدث ومما يحدث، ولكنك فرح تعانى من الرغبة فى الضحك وحث الحزانى على الفرحة.

لا بد أنك قد أصبت فى عقلك، أم أنك فرح لأن الذى مات لم يكن أنت. لا بد أن الأمر كذلك؛ بل انه حقًّا لكذلك.

توالت ضربات قلبى بعنف مفاجئ فى غير انتظام، حذرنى الطبيب من التدخين ولم أمتثل لتحذيره، قال إن شراييني تتصلب وإننى مهدد بجلطة قد تودى بحياتى فى لحظة، وها هو صديقى الذى لا يعرف السيجارة قد مات وأنا حى أنعم بوجودى بين مخلوقات الله من إنس وجن فلماذا لا أرقص طربًا بنشوة الحياة؟!

لا تعجب فأنت لم تأت بجديد؛ لأن كل بنى آدم يمشى فى هذه الجنازة ويفكر فى الميت، يظن أن كل الناس سوف يموتون فيما عداه، فالمسألة لا تخصه بأى حال لأنه لم يمت بعد.. وهكذا أنت أيها الفرحان السعيد.

تسللت إلى صف آخر، كان أحدهم يسأل رفيقه فى تضرع:

- أقرضنى عشرين جنيهًا حتى آخر الشهر.

أجابه جاره فى بلادة:

- العين بصيرة واليد قصيرة.

- سوف أفتضح أمام أولادى.

- الحال من بعضه.

وعاود أحدهم الصياح:

-وحدووووه.

فردد الجميع:

- لا إله إلا الله.

لم أتألم لما سمعت، بل ازدادت فرحتى بنعم الله علىَّ، أخرجت من جيبى عشرة جنيهات واقتربت منه مادًّا بها يدى، قلت له فى ابتسامه ودودة:

- تسمح لى أن أقرضك نصف المبلغ.

ارتبك الرجل وغرق فى حيائه وتلعثم فى كلماته:

- من أنت؟ أتعرفنى؟!

- أنا أحد أصدقاء المرحوم.

كررت المحاولة، لكنه أصر على الرفض.

كنت فرحًا لمحاولتك إسعاده فأصبحت فرحًا لنجاتك بجنيهاتك العشرة التى أنت بحاجة إليها مثله تمامًا. لا مفر من الفرحة إذن، إنها تحاصرك فى كل الأحوال بقيد حريرى رهيب.

ابتعد الرجل عنى، ولكنه ظل ينظر إلىَّ من حين إلى آخر بطرف عينه متشككًا فى أمرى،وكأنه لا يصدق فكرة وجود إنسان يسره أن يساعد إنسانًا لا يعرفه فى محنة. تواريت فى صف آخر لأعفيه من الانشغال بأمرى، فمصيره كمصيرى ولا مبرر لانشغال أحدنا بالآخر.

- يا عم كلنا مديونون، البلد نفسها غارقة فى الدين.

- أهلكنى جهاز البنت، عيشة تقرف.

- ألا يساعدك ابنك؟

- كيف يساعدنى ولم يجد عملاً حتى الآن؟

- ياهووه، وقد تخرج منذ ثلاثة أعوام!!

- أسمعنا آخر نكتة الله لا يسيئك.

لو سمحا لك أن تشاركهما الحوار لفاقت سعادتك الوصف،لو كنت تعرف أحدهما على الأقل لقلت له: إن بناتك الثلاث على وشك الزواج، وأنك منذ أصبت بالفرحة لم تعد تشعر بذرة من القلق بشأن تجهيزهن رغم أن رصيدك بالبنك قد انخفض إلى تسعة وسبعين جنيهًا بعد ربع قرن أمضيته فى خدمة الدولة.

- ربنا على الظالم.

- عنده الآن مارسيدس وفيلا على البحر بالإسكندرية.

- مصيره إن يقع يومًا.

- مثله لا يقع لأنه مسنود.

- يبدو أن كلهم لصوص أولاد كلب.

فلماذا لا أفرح بيدى النظيفتين وراتبى الحلال، قد أكون شريفًا بالمصادفة فالغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن الحقيقة أننى لم أمد يدى

للحرام حتى هذه اللحظة، وحيث إننى محسوب ضمن الشرفاء فمن حقى أن أكون فرحانًا بغير حدود.

- أهذا وقته يا رجل؟

- الحى أبقى من الميت والمشوار طويل؛ قلت لك: حجاز كار .

- وأنا أقول: إنه مطعم بالصبا.

- لم ألحظ ذلك على اللحن.

- ليس ذنبى أن أذنك غير موسيقية.

وكأن الفرح يمعن فى إحكام حصاره من حولى، فأهل الفن يشاركوننى العزاء فى الفقيد أجمل مشاركة، أين انت يا ليالى الرقص والطرب والسهر حتى الفجر ووصل الليل بالنهار والنهار بالليل، واستحلاب نعيم الدنيا وبهجتها؟.. أنساك الغم والكدر والسعى اليومى كل هذا وخيل إليك إنها ذهبت إلى غير رجعة. ها هى الفرحة تبشرك بعودتها من جديد. تعالى أيتها الليالى ولا تفلتى من بين أصابعى مرة أخرى، ولو شاب الشعر وتراخت العضلات. سوف أتشبث بأجنحتك الطليقة إلى الأبد لأطير معك فى فضاء السعادة الرحب، جاءت بك الفرحة ولن أدعك تذهبين منى، الشهيد

عليه الرحمة، سوف ينعم بجنات الخلد، فلأفرح لأجله ولتلتئم صحبة العود والكمان وليمتلِئ الكون كله بأغنيات الحب حتى الثمالة.

لم لا أفرح؟.. دلونى أيها الناس على سبب واحد تكفهر من أجله أساريرى، وتتقلص عضلات وجهى، ويغضب قلبى، وتغم نفسى.. لماذا لا تفرحون معى بالوجود؟!

- أحبها بجنون.
- وهى؟.
- لا تبادلنى الشعور نفسه.
- أتحب غيرك؟.
- لم تبح بسرها.
- إذن فدعها وتوكل.
- لا أستطيع.. أنت لا تعرف الحب.

أما أنا فأعرفه أكثر مما أعرف نفسى، أعرفه فى عينيها حين أستخلص منهما لعينى رؤية ما فى الدنيا من جمال، هى روحى ولحظتى الحاضرة والفائتة والقادمة. كل أفراح الدنيا فى كفة وحبها فى كفة.. وكيف لا يكون هذا حالى ومقامى وأنا ثمل

بمحبتى لا أصحو.. وأنا أعرفه وأراه وأحبه فيها ومن خلالها. ينبوع فرحتى هى حين تبتسم أو تشرد أو تضحك أو تدمع عيناها الحبيبتان.

ما الحنان إن لم يكن حبيبتى؟ وما الدنيا وما معنى الوجود فى غيبتها؟ لك الحمد يا رب على عطائك فاحفظها لى من كل سوء، بالله لا تتركينى يا حبيبتى مهما كانت الأسباب، أتوسل إليك يا خالق السماوات والأرض وما بينهما، لقد سلمت أمرى اليك، وفرحت بنفحتك فرحًا لا يغضبك فأنا أعرف أنك لا تحب الفرحين.. فرحت بها الفرح الخالص الذى سوف يدفع بى يومًا إلى الخلاص فأهديها فرحتى كاملة وأقترب منك وأقترب وأقترب، لعلى أكون يومًا من عبادك المخلصين، فلا بد للطالبين السالكين من المحبة ولابد للمحبين من الزهد فى الفرحة.

اقترب موكب الجنازة من منطقة شعبية تحفل بالضجيج والزحام وصراخ الأغانى الراقصة المنبعثة من أشرطة الكاسيت على المقاهى والحوانيت، حين بدأت أشعر بقرب وقوع كارثة؛ ذلك أن سيطرتى على فرحتى قد بدأت فى التضاؤل، انهارت كل أسباب المقاومة وسقطت كل المبررات وبدأت خلايا جسدى بكل دقائقها المجهرية ترقص بالفعل محرضة جوارحى على مشاركتها الفناء فى الله، وشيئًا فشيئًا فقدت اتصالى بالشهيد والجنازة والإرهاب

والعوز والبطالة والغلاء والفساد والديون، وليالى العشق والنشوة، ووجدت نفسى أنسحب إلى أقرب مقهى وأشد مقعدًا بثقة متناهية، ثم أقف عليه صائحًا بيقين:

- أيها النـاس!!!

فيلتف الجمع من حولى وعلى أفواههم ابتسامات ساخرة، وكأنهم فى أمس الحاجة إلى مجنون يزيل عنهم كدرهم ويكشف غمتهم.

- لماذا لا تفرحون؟!

وتتناثر الضحكات من كل اتجاه، لا عن رغبة فى الفرحة بناء على دعوتى، وإنما سخرية من تلك الدعوة، فكان عزائى أن هذا دائمًا حال أصحاب الرسالات منذ قديم الأزل، فلا عجب أن أمتثل الآن لضميرى وأسلم لسانى وأذنى وكل جوارحى طائعًا مختارًا إلى تلك الأنغام الباطنية التى تعزفها الروح على مقامات الفرحة.. مستسلمًا لتقلبها وتنقلها بين القبض والبسط والصعود والهبوط والأنس والهيبة والحزن والطرب والشوق والوحشة والحب والفناء.

❊ ❊ ❊

نشرت فى مجلة حواء ١٣ / ١ / ٢٠٠١

المؤلف فى سطور :

سعيد سالم

من مواليد الاسكندرية

– عضو اتحاد كتاب مصر، و عضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنون والآداب وعضو أتيليه الفنانين والكتاب وعضو لجنة النصوص الدرامية بإذاعة وتليفزيون الإسكندرية سابقًا .

– حاصل على ماجستير الهندسة الكيميائية من جامعة الإسكندرية ١٩٦٨ .

– رئيس قطاع سابق بشركة الورق الأهلية بالإسكندرية وحاليًا على المعاش.

– عنوان المنزل : ٥ شارع على باشا ذو الفقار – شقة ١٠ – مصطفى كامل / الإسكندرية .

– تليفون منزل: ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣) .

– محمول ٤٣٩٠٢٥٩ / ٠١٢٢

الروايات (١٥ رواية)

«جلامبو» جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٦ – «بوابة مورو» جماعة أدباء الإسكندرية – «عمالقة أكتوبر» هيئة الكتاب، مصر ١٩٧٩«آلهة من طين» (طبعة أولى) هيئة الكتاب، مصر ١٩٨٥ / (طبعة ثانية) دار الجليل، دمشق ١٩٨٦ – «عاليها أسفلها» (طبعة أولى) مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق / سوريا ١٩٨٥ – «الشرخ» دار طلاس، دمشق / سوريا ١٩٨٨» – «الأزمنة» روايات الهلال ١٩٩٢ – «عاليها واطيها» (طبعة ثانية) دار المستقبل، مصر ١٩٩٢ – «الفلوس» دار المستقبل، مصر ١٩٩٣ – «عاليها أسفلها» (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥ – «الكيلو ١٠١ الوجه والقناع» طبعة خاصة ١٩٩٧ و طبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩– «حالة مستعصية» دار الهلال ٢٠٠٢ – « كف مريم» مطبوعات اتحاد الكتاب ٢٠٠١.–«الشيء الآخر». دار ومطابع المستقبل ٢٠٠٤– الحب والزمن.(نشرت مسلسلة بجريدة الدستور على ١٣ حلقة)عام ٢٠٠٧ ، ثم بروايات الهلال عام ٢٠١١.. المقلب–«مطبوعات المجلس» الأعلى للثقافة (٢٠٠٩)– الفصل والوصل٢٠١٢.

المجموعات القصصية : (٩ مجموعات)

-«قبلة الملكة» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٧ – «رجل مختلف» هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥ – «الموظفون» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١ – «الجائزة» دار قايتباى للطباعة و النشر، مصر ١٩٩٤ – «الممنوع والمسموح» مختارات فصول.مصر ٢٠٠٢- «أقاصيص من السويد»الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٥- «قانون الحب»سلسلة الكتاب الفضى،مصر٢٠٠٦، هوى الخمسين(نهضة مصر)٢٠١١، الكشف.(هيئة الكتاب)٢٠١٣

مجموعات قصصية تحت النشر:

رحيق الروح (المجلس الأعلى للثقافة).

القصص القصيرة منشورة بالجرائد والمجلات الآتية :

الأهرام – الأخبار – الجمهورية – المساء – أكتوبر – حواء– مايو – الهلال – الثقافة – الكاتب – إبداع – آخر ساعة– روز اليوسف – القصة – عالم القصة – أمواج – الاسكندرية – الأيام – البحث – تشرين – الموقف الأدبى – الثورة – الأسبوع الأدبى – الكتاب العربى – البيان – الأنباء – العربى – الفيصل المجلة – الحرس الوطنى – الشرق الأوسط – الدستور – الرأى– صباح الخير – الناشر – العربى – الكويت .

المسرح : الجبلاية (مسرحية كوميدية ٣ فصول) – الدكتور مخالف (مسرحية كوميدية ٣ فصول) .

نماذج من الدراما الإذاعية والتليفزيونية :

حجر النار – العائد – سباق الوهم – بوابة مورو – زارع الأمل – رحلة الصعود والهبوط – رجال من بحرى – الدكتور مخالف – أحلام الناس الطيبين – عيون الليل – مفتاح السر– الحب والزمن و غيرها؛ وهى مسلسلات إذاعية شهرية بإذاعتى

الإسكندرية والقاهرة، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية وبرنامج عالم القصة.. والمسلسل الكوميدى التلفزيونى» عاليها واطيها انتاج «صوت القاهرة ٢٠٠٨ ..والمسلسل التليفزيونى الدرامى«المقلب»تحت التنفيذ.

فى النقد الأدبى:

كتاب نقدى بعنوان«الاسكندرية ٢٠١٠ فيض من الابداع المتألق». وكتاب بعنوان«نجيب محفوظ الانسان» سلسلة نجيب محفوظ، هيئة الكتاب ٢٠١١

أهم الجوائز:

١- الجائزة الأولى عن رواية «الأزمنة» فى مسابقة إحسان عبدالقدوس للرواية ١٩٩٠ .

٢- جائزة الدولة التشجيعية فى القصة لعام ١٩٩٤ عن مجموعة (الموظفون)، الصادرة عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق.

٣- جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية «كف مريم».

٤-جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠١٠ عن رواية «المقلب».

٥- جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام ٢٠١٢

٦- وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ٢٠١٣